علاء الدين عطا ملك الجويني

حاكم العراق

بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد

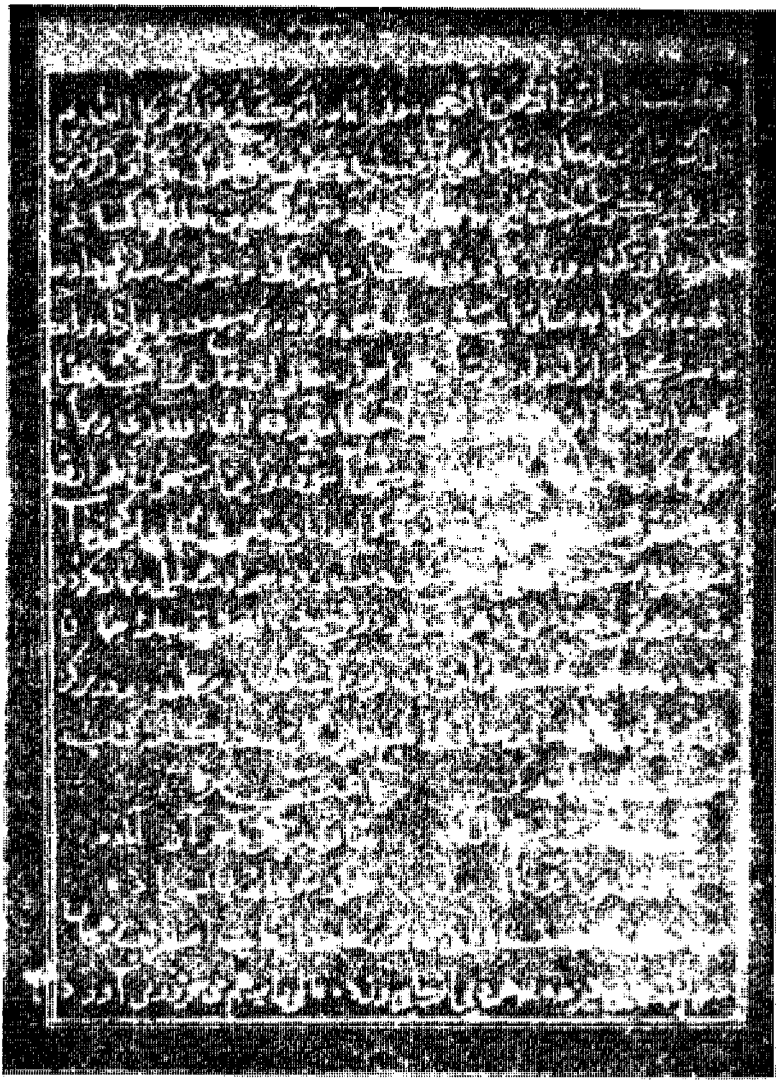
تأليف
الدكتور محمد السعيد جمال الدين
الأستاذ المشارك بجامعتي عين شمس بالقاهرة
والامام محمد بن سعود الاسلامية بالقصيم

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

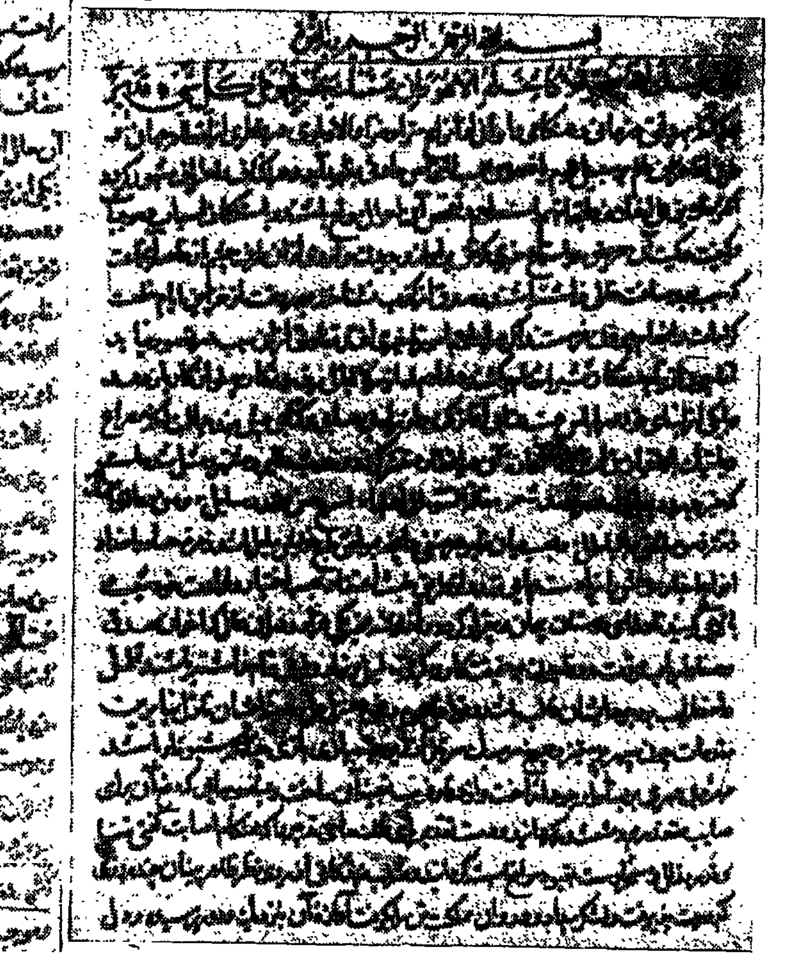
بسم الله الرحمن الرحيم

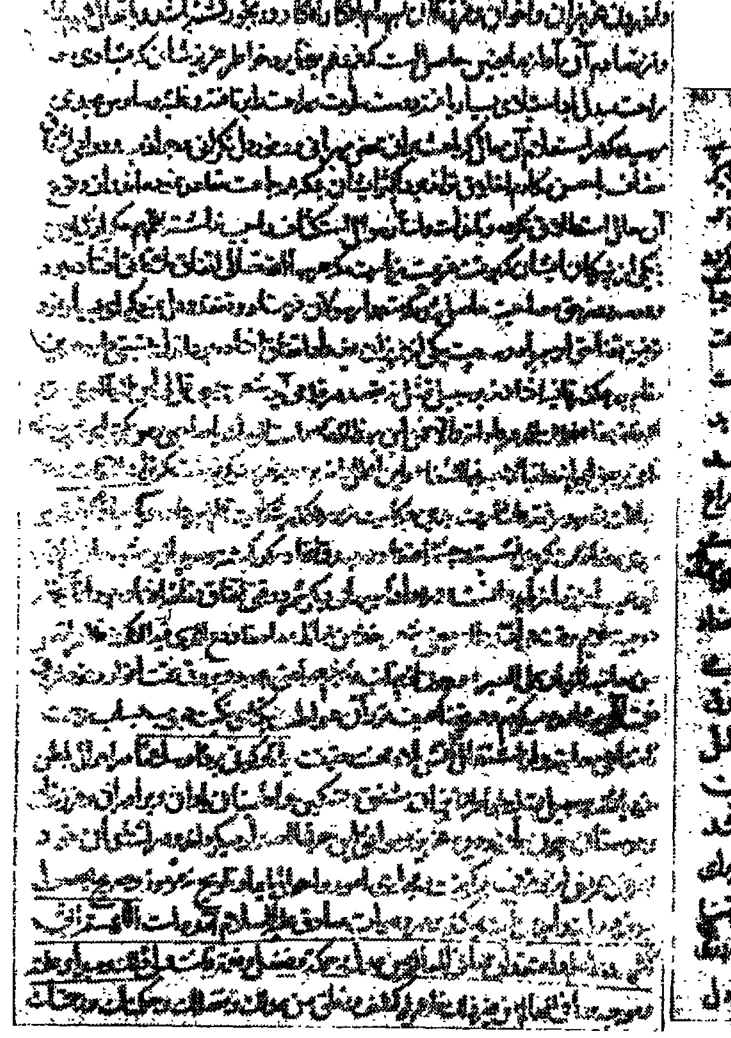
« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى ، انى تبت اليك ، وانى من المسلمين » ٠

(قرآن كريم)



صورة للورقة الأولى من مخطوط « صـــلة تسلية الاخوان المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس





صورة للورقة الأولى من مخطوط « تسلية الاخوان » ، المحفوظ بالمكتبة فى باريس .

علاء الدين عطا ملك الجوينى

حاكم العـــراق

بعد انقضاء الخلافة العباسية فى بغداد

مقـــدمة :

حظى علاء الدين عطا ملك الجوينى باهتمام كبير وشهرة عريضـــة واسعة فى أوساط المستشرقين والدارسين المسلمين منذ نهاية القرن التـاسع عشر الميلادى وحتى وقتنا هذا (١) ٠

ويرجع هذا الاهتمام الى أن علاء الدين كان رجلا متعدد الجوانب ، متنوع المواهب ، فلقد عاش فترة انتقالية شديدة الحرج ، حيث أقدم على العمل فى وظيفة كتابية بديوان الحاكم المغولى لبلاد فارس ، بعد أن اجتاحهـــا المغول وقضوا على ما فيها من حضارة وتمدن ، وقتلوا معظم أهلها ، وارتكبوا من الأعمال الوحشية ما تقشعر له الأبدان ، ويشيب لهوله الولدان ٠

وكان الى جانب ذلك مؤرخا بارعا ، ألف بلغته الفارسية كتابا يعد مصدرا أصيلا من مصادر التاريخ الاســـــلامى ، ونعنى به كتاب « تاريخ جهانكشاى » ، أى تاريخ فاتح العالم ، الذى ينطوى على معلومات وأخبـار فى غاية القيمة عن دول المغول ، والخوارزميين ، والاسماعيلية ، وهى دول عاصرها علاء الدين بنفسه ، وكان شاهد عيان على أحداثها ، وانتهز الفرص

---

(١) كان أول من عنى بترجمة حياة علاء الدين والتعريف بكتابه جهانكشـــاى المستشرق الفرنسى كاترمر فى كتابه « الكنوز المشرقية » الذى نشر سنة ١٨٠٩ م ، وتبعه فى ذلك المستشرق الفرنسى شيفر ، فى كتابه « مختارات فارسية » (١٨٨٥ م) ثم جاء المرحوم الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى فنشر مقالة ضافية فى غاية القيمة عن علاء الدين وأسرته ومؤلفاته فى مقدمة الجزء الأول من « تاريخ جهانكشاى » ، الذى صدر سنة ١٩١٢ م ٠

وانظر أيضا : مقالا نشر باللغة العربية عن شخصية عطا ملك وكتابه جهانكشاى ، كتبه الأستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتى بعنوان « تاريخ جهانكشاى » ، مجلة تراث الانسانية » العدد الثانى ، المجلد الرابع ، مصر ١٩٦٦ م ، ص ١١٨ ـ ١٣٢ ٠ ومقالا آخر نشر بالعربية أيضا بعنوان « علاء الدين عطا ملك الجوينى وكتابه التـــاريخى جهانكشاى » للأستاذ الدكتور أحمد خالد البدلى ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، المجلد الأول ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ٠

الضئيلة التى كان يخلو فيها الى نفسه بعد ممارسة أعماله الديوانية المعقدة ، ودون هذه الأحداث والمعلومات الهامة عن المغول وغيرهم ، فى وقت عزف فيه كبار المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث ـ كالمؤرخ النابه عز الدين بن الأثير ـ عن الكتابة عنهم ، كما ذكر ابن الأثير نفسه فى حوادث سنة ٦١٧ عند حديثه عن « خروج التتر الى بلاد الاسلام » (٢) ٠

أما علاء الدين الجوينى فلم يجد حرجا فى ذكر هذه الأحداث ، وليس هذا فحسب ، بل أخذ ـ بحكم صلاته بالمغول ـ يسجل شهاداتهم عن أصولهم وقبائلهم ، ويورد روايات عن شهود رأوا بأنفسهم هذه الأحداث وشاركوا فيها ، فجاء كتابه « تاريخ جهانكشاى » لكى يسد نقصا واضحا فى المكتبة التاريخية الاسلامية ، وتم طبعة بمعرفة « مؤسسة جب التذكارية البريطانية » بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى ٠ وما لبثت منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة أن عهدت الى المستشرق الأمريكى ج ٠ أ ٠ بويل بترجمة الكتاب الى الانجليزية ، والى المستشرق الروسى المعروف «مينورسكى» بمراجعة ترجمة الكتاب الذى طبع فى هارفارد سنة ١٩٥٨ م ٠

كان علاء الدين قد رافق هولاكو ـ القائد المغولى ـ فى حملتــه على الخلافة العباسية فى بغداد سنتى ٦٥٥ ـ ٦٥٦ ، وما لبث هولاكو أن عينه حاكما للعراق ، اثر انهيار الخلافة العباسية ، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى تلك البلاد ، فظل علاء الدين حاكما للعراق منذ سنة ٦٥٧ حتى وفاته سنة ٦٨١ ٠ وتمكن خلال هذه السنوات الأربع والعشرين مــن النهوض بالعراق من كبوته الاقتصادية والحضارية ، وشهد الناس بنجاح علاء الدين فى ذلك نجاحا كبيرا ، حتى بالغ بعض المؤرخين وقال : « عمر علاء الدين صاحب الديوان بغداد حتى كانت أجود من أيام الخلافة » (٣) ٠

ولئن كان الدارسون من المسلمين والمستشرقين قد عنوا بالبحث والدرس فى حياة علاء الدين الجوينى ككل واحد لا يتجزأ ، فان ذلك قد أدى الى طمس ملامح الحياة السياسية والاجتماعية التى كان يحياها حاكم العراق فى ذلك

---

(٢) ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ ١٢ : ٣٥٨ ، طبع بيروت ، ١٣٨٦ هـ ٠

(٣) انظر : تاريخ الاسلام للذهبى ، جـ ٣٢ ورقة ٦ من النسخة الخطية المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٢ تاريخ ٠

الوقت ، لا سيما وأن علاء الدين كتب بنفسه رسالتين تمثلان فى الواقع سيرة ذاتية ، أو مذكرات شخصية دونها فى الفترة الأخيرة من حياته ، وكان لا يزال حاكما للعراق · وتتضمن هاتان الرسالتان معلومات واشارات فى غاية القيمة عن الحياة التى كان يحياها حاكم العراق حينذاك ·

وكان الأستاذ « محمد بن عبد الوهاب القزوينى » أول من عثر على هاتين الرسالتين فى المكتبة الأهلية فى باريس (٤) ، ونبه الى أهميتهما فى دراسة الفترة الأخيرة من حياة علاء الدين ، وأفاد بهما فى كتابة مقدمته لتاريخ جهانكشاى ، ثم وعد بنشرهما بعد تحقيقهما لكى تعم الافادة بهما على أوسع نطاق (٥) · غير أن المنية عاجلته ، وبقيت هاتان الرسالتان دون أن تحققا وتنشرا حتى الآن ·

ولقد طلبت خلال زيارتى للمكتبة الأهلية فى باريس فى ربيع سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) تصوير هاتين الرسالتين بهدف الافادة بهما فى كتابة هذا البحث ، وتم تصويرهما بالفعل ·

وكان علاء الدين الجوينى قد أطلق على أولى هاتين الرسالتين اسم « تسلية الاخوان » · وقد ألفها باللغة الفارسية سنة ٦٨٠ ، ودون من خلالها مذكراته عن تلك السنة · أما الرسالة الثانية فلم يطلق عليها اسما ، ويبدو أنه عدها مكملة للرسالة الأولى ، وألفها ـ بالفارسية أيضا ـ فى غضون سنة ٦٨١ ، واستأنف فيها عرض الأحداث التى مرت به فى النصف الأول من عام ٦٨١ ، وهى نفس السنة التى توفى فيها ·

---

(٤) توجد كل من هاتين الرسالتين فى ذيل احدى النسخ الخطية لكتاب « جهانكشاى » المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى باريس · فالرسالة الأولى « تسلية الاخوان » تأتى فى ذيل النسخة رقم

Suppl. Pers 1556 — pp. 220b - 231a

أما الرسالة الثانية الملحقة برسالة تسلية الاخوان فتأتى فى ذيل النسخة الخطية رقم .

Suppl. Pers. 206, — pp. 1 b - 41b

(٥) انظر : مقدمة محمد بن عبد الوهاب القزوينى لكتاب « تاريخ جهانكشاى » ج ١ ، ص : عو ، طبع ليدن ١٩١٢ م ·

وسوف نحاول فى هذا البحث ـ بعون من الله تعالى ـ أن نلقى الأضواء على الفترة الأخيرة من حياة علاء الدين ، وهى الفترة التى حكم فيها بغداد

والعراق العربى ، وسيكون جل اعتمادنا على ما كتبه علاء الدين عن نفسه فى هاتين الرسالتين المذكورتين ، غير أننا سنبدأ حديثنا أولا بتعريف يسير بنسب علاء الدين وأسرته ، ومولده ، ثم نعرض عرضا سريعا للأعمال التى تولاها قبل حكم بغداد ٠

١ ـ علاء الدين الجويني قبل حكم بغداد

نسبه :

عندما ترجم الحافظ الذهبى فى كتابه « تاريخ الاسلام » لعلاء الدين عطا ملك الجوينى ، وصل نسبه بالفضل بن الربيع ، حاجب خلفاء بنى العباس ، يقول : « هو الصدر المعظم ، صاحب الديوان ، علاء الدين أبو المظفر عطا ملك ، بن بهاء الدين محمد ، بن محمد ، بن محمد ، بن على ... بن الفضل بن الربيع » (٦) .

وقد انتهز ابن الطقطقى ، صاحب كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » بسبب العداء الذى كان يكنه لعلاء الدين (٧) ، فرصة الترجمة للربيع الحاجب فى كتابه ، وقدح قدحا شديدا فى نسب الربيع ، وذكر أنه مشكوك ومطعون فيه لدى العلماء ، وأبدى دهشته من انتساب علاء الدين الى رجل مثل الفضل بن الربيع (٨) .

ومهما يكن من أمر ، فان الجد الأعلى لعلاء الدين ، المسمى بهاء الدين محمد ، كان يعمل فى خدمة السلطان « أتسز » خوارزمشاه ، فى سنة

---

(٦) تاريخ الاسلام ، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٢ ، تاريخ ، ج ٢٣ ، ق ٧ .

(٧) فلقد قتل علاء الدين خلال فترة حكمه لبغداد « على بن طباطبا » المعروف بالطقطقى . كان الفضل بن الربيع قد ولى حجابة المنصور العباسى عندما ولى المنصور أباه وزيرا . ويقال ان الفضل ولد سنة ١٣٨ وتوفى سنة ثمان ومائتين . وقد ولاه الرشيد الوزارة بعد نكبة البرامكة . والفضل من أحفاد أبى فروة « كيسان » مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه . انظر : الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ١٢ : ٣٤٣ـ٣٤٤ طبع المطبعة السلفية بالمدينة المنورة ، وانظر أيضا : خير الدين الزركلى : الاعلام .

وعلى بن طباطبا المذكور هو أبو محمد صاحب كتاب الفخرى ، وهذا هو منشأ العداء الذى كان يشعر به محمد هذا نحو علاء الدين . انظر فيما يلى ص ٢٢ ـ ٢٣ وانظر أيضا :

Boyle, J.A., Ibn al-Tiqtaqa and the Tarikh-i-Jahan-Gushay of Juvaini. B.S.O. A.S., Vol. XIV, Part I,

(٨) انظر : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، طبع المطبعة الرحمانية ، مصر .

٥٨٨ (٩) • وكان جده المسمى شمس الدين محمد من ملازمى السلطان محمد خوارزمشاه كما كان يعمل مستوفيا لديوانه (١٠) ، وظل شمس الدين محتفظا بهذا المنصب فى عهد خليفة السلطان محمد المعروف باسم « جلال الدين المنكبرتى » (١١) •

وبعد اجتياح جنكيز خان للمشرق الاسلامى وقضائه على الدولة الخوارزمية ، عمل أبو علاء الدين ، المسمى بهاء الدين محمد بن محمد (١٢)، فى وظيفة صاحب الديوان (١٣) فى اقليمى خراسان ومازندران فى سنة ٦٣٠ ، تحت امرة المغول (١٤) • وفى سنة ٦٥١ تم اختياره ليتولى حكم العراق العجمى ، ولكنه لم يكد يصل الى اصفهان حتى اخترمته المنية •

وهكذا يتبين لنا أن علاء الدين ينتمى الى أسرة ضربت بسهم وافر فى الأعمال الديوانية ، وفى ملازمة السلاطين والملوك فى عهد دول السلاجقة ، والخوارزميين والمغول •

مولده واعماله الديوانية :

ولد علاء الدين عطا ملك الجوينى سنة ٦٢٣ (١٥) ، وقد عمل ـ كما

---

(٩) علاء الدين عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى بتحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبع ليدن ، ١٩١٧ م ج ٢ ص ٢٨ •

(١٠) انظر : غياث الدين بن همام ، المعروف بخوند أمير : كتاب حبيب السير ، نشر محمد حسين كاشانى ، بمباى ١٢٧٣ هـ •

(١١) أيضا ، أوائل الجزء الثالث ، فى ترجمة حياة شمس الدين محمد الجوينى •

(١٢) كان خال بهاء الدين هذا هو الكاتب والأديب الفارسى المعروف « منتجب الدين بديع الجوينى الكاتب » وهو من أهم الأدباء الفرس فى فن الانشاء والترسل ، وكان من أقرب الكتاب الى السلطان سنجر السلجوقى ،

راجع : محمد عوفى ، لباب الألباب ، طبع ليدن ١ : ٧٨ ـ ٨٠ •

(١٣) وظيفة صاحب الديوان تعادل فى عصرنا الحاضر وزارة المالية أو الخزانة •

(١٤) تاريخ جهانكشاى ج ٢ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ •

(١٥) انظر : تاريخ الاسلام للذهبى ، نسخة دار الكتب المصرية ج ٣٢ ورقة ٧ ، وانظر أيضا ابن الفوطى فى : « الحوادث الجامعة » طبع بغداد ١٩٣٢ م ص ٤٢٢ حيث يقول : « وكان مولده (يعنى علاء الدين عطا ملك) فى عاشر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وستمائة » •

يحدثنا فى مقدمة كتابه جهانگشاى ـ منذ أوائل شبابه ، وقبل أن يبلغ العشرين من عمره بأعمال التحرير والديوان وانخرط فى سلك الكتبة الخصوصيين للحاكم المغولى لايران (١٦) ، وقد ساعدته وظيفته هذه على السفر الى بلاد المغول الأصلية فى منغوليا بضع مرات فى صحبة ذلك الحاكم · وقد بقى فى « قراقورم » عاصمة الامبراطورية المغولية نحو سنة ونصف فى احدى هذه المرات ، فعايش المغول ، وعاين بعض الأحداث الهامة ، واتصل بعدد من أمراء المغول وأشرافهم ، فتيسرت له سبل جمع الحكايات والروايات المتعلقة بنشأة المغول وتاريخهم قبل جنكيز خان وبعده ، مما دفعه الى تأليف تاريخه المعروف « تاريخ جهانكشاى » (١٧) · الذى بدأ فى كتابته فى حدود سنة ٦٥٠ ، وانتهى فى سنة ٦٥٨ (١٨) ·

وعندما جاء هولاكو على رأس جيش كبير سنة ٦٥٤ قاصدا القضاء على الاسماعيلية فى ايران ، والاطاحة بالخلافة العباسية فى بغداد ، كان على الحاكم العام للبلاد الفارسية أن يتنحى عن منصبه لهولاكو ، أخى الامبراطور منكوقاآن · غير أن هذا الحاكم عين ، قبل مغادرته البلاد ، علاء الدين عطا ملك فى خدمة هولاكو « لتنظيم المهام وتدبير المصالح ، وقد عهد اليهم بادارة دفة الأمور فى ممالك العراق (العجمى) وخراسان ومازندران » (١٩) ·

---

(١٦) تولى هذا الحاكم المغولى واسمه « الأمير ارغون آقا » ، حكم البلاد الفارسية من قبل سلاطين المغول فى الفترة من سنة ٦٤١ حتى سنة ٦٥٤ . وهى السنة التى قدم فيها « هولاكو » الى ايران ، وعندئذ سلم ارغون زمام الأمور لهولاكو ·

(١٧) يقع جهانكشاى فى ثلاثة أجزاء : **الجزء الأول** : فى تاريخ أقوام المغول وعاداتهم وفتوحات جنكيزخان فى العالم الاسلامى وتاريخ بعض خلفاء جنكيز · **والجزء الثانى** : فى تاريخ الخوارزميين وغيرهم من الدول التى اجتاحها المغول فى منطقتى تركستان وما وراء النهر · **والجزء الثالث** : فى تاريخ « منكوقاآن » ومسير اخيه هولاكو الى ايران . ويستطرد فى ذكر تاريخ الاسماعيلية فى ألموت ، فيشرح تاريخ مذهبهم وتطوره ، وحملة هولاكو عليهم ، ويختتم هذا الجزء بذكر آخر ملوك الاسماعيلية وانقراضهم على يد هولاكو سنة ٦٥٥ · وقد قام كاتب هذه السطور بترجمة القسم الخاص بالاسماعيلية الى اللغة العربية · ونشره ضمن كتابه « دولة الاسماعيلية فى ايران » طبع مصر ١٩٧٥ م ·

(١٨) راجع مقدمة القزوينى لكتاب جهانكشاى ج ١ ص : ق وما بعدها ·

(١٩) جهانكشاى ج ٣ ص ١٠٠ ، طبع ليدن ١٩٢٧ م ·

ومنذ ذلك الحين أصبح علاء الدين من خواص الملازمين والكتاب لهولاكو ، ومن المقربين اليه ٠

ولقد تحدث علاء الدين صراحة فى كتابه « تاريخ جهانكشاى » عن أنه كان يلازم هولاكو بصفة دائمة أثناء حملته لاستئصال الاسماعيلية ، وأنه كان صاحب الفضل فى انقاذ مكتبة قلعة ألوت ـ عاصمة دولة الاسماعيلية فى ايران ـ من الاحراق والدمار ، واستخرج منها كتابا مفيدا للغاية فى تاريخ الاسماعيلية فى تلك المنطقة ، كتبه الاسماعيلية بأنفسهم بعنوان « سركذشت‌سيدنا » أى سيرة سيدنا ، وقد نقل علاء الدين ملخصا لهذه السيرة فى الجزء الثالث من تاريخه « جهانكشاى » (٢٠) ٠

ولما فرغ هولاكو فى سنة ٦٥٥ من الاسماعيلية ، اتجه بجيوشه صوب بغداد للقضاء على الخلافة العباسية ، وكان علاء الدين فى زمرة أصحابه (٢١) ٠ وظل فى خدمة هولاكو الى ان انتهى من غزو بغداد ، وقتل الخليفة العباسى المستعصم ٠

تبرير الواقعة :

لا بد لنا من مناقشة علاء الدين ـ وهو السنى المحافظ ـ فيما أقدم عليه من مصاحبة هولاكو فى حملته للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد ، التى كانت تمثل قيادة المعسكر السنى فى العالم الاسلامى ، فهذه المصاحبة تتضمن موافقة من جانب علاء الدين على الوسائل التى توصل بها الغازى المغولى لغزو بغداد ، والنتائج التى حققتها الحملة فى النهاية ٠

والواقع أن علاء الدين لم يشأ أن يظهر للناس أنه يرى بأسا بانتصار

---

(٢٠) راجع كتابنا : دولة الاسماعيلية فى ايران ، حيث قمنا بترجمة النص الذى نقله علاء الدين عطا ملك الجوينى من « سركذشت سيدنا » الى اللغة العربية من ص ١٥٠ ـ ٢٢٥ ، طبع مصر ١٩٧٥ م ٠ انظر فيما سبق حاشية رقم : ١٧ ٠

(٢١) جامع التواريخ ، طبع كاترمر ص ٢٦٤ ، يعادل ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ من الترجمة العربية لجامع التواريخ ، ترجمه عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب ، والدكتور فؤاد الصياد والأستاذ صادق نشأت ، طبع مصر ١٩٦٦ م ٠

المغول على خلفاء بنى العباس ، والقضاء على الخلافة فى بغداد ، وانما عد ذلك من سنن الله فى الكون ، وآياته فى الخلق ، فقال فى رسالته « تسلية الاخوان » : « لما انتزع حاكم دار الملك بحكم الآية الكريمة : « تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » ممالك العراق وبغداد ، وخوزستان من خلفاء بنى العباس ، وأسلمها لسلطان الدنيا هولاكو ، وأودعه اياها ٠٠ الخ » (٢٢)

فالمغول اذن ـ وهم من الكفار الذين لا يعرفون الله عز وجل ولا يعبدونه ـ قد اتوا لانفاذ حكم الله فى القضاء على تلك الخلافة التى لم يعد لها من الاسلام الا الشىء اليسير ٠

والواقع أن هذه النظرة انما تنطوى على رؤية تاريخية مبنية على النظرة القرآنية الى ظهور الدول وزوالها ٠ والحق أنه كان لا بد لعلاء الدين أن يفلسف هذا الموقف على أنه قضاء الله تعالى وقدره ، والا فكيف يستطيع أن يبرر اصطحابه لهولاكو فى هجومه على بغداد ؟ ألم يكن بامكانه أن ينتحل الأعذار ويتخلف عن هولاكو فى حملته تلك ، حتى تبرأ ذمته أمام الله عز وجل وأمام الناس ؟ ألم يكن بامكانه أن يقوم ، ولو بمحاولة يائسة لاقناع هولاكو بالتخلى عن غزو بغداد ؟ لاسيما وأننا قد شاهدنا أحد المنجمين فى بلاط هولاكو يبذل وسعه لايقاف الهجوم ، ويعمل على بث الخوف والذعر فى قلوب المغول من مغبة قضائهم على خلفاء بنى العباس ٠ اذ يحدثنا صاحب كتاب « جامع التواريخ » عن رجل يسمى « حسام الدين المنجم » صحب هولاكو لكى يتخير له أوقات السعد فى حله وترحاله ، أشار على هولاكو بقوله : « ان الهجوم على أسرة الخلافة ، وتجريد الجيش الى بغداد أمر ليس فيه من البركة شىء ، فما من أحد حتى وقتنا هذا حمل على بغداد والعباسيين الا وخسر ملكه وحياته معا ، وان لم يصغ السلطان ـ هولاكو ـ لكلامى وأصر على الهجوم ، فلا بد من ظهور الفساد على ستة أوجه :

الأول : أن تنفق الخيل كلها ، ويصاب الجند بالأمراض ٠
الثانى : ألا تشرق الشمس ٠
الثالث : أن لا ينزل المطر ٠
الرابع : أن تهب ريح صرصر عاتية وتزلزل الأرض ، فيعم الدمار العالم ٠

---

(٢٢) رسالة تسلية الاخوان ق ٢٢٣ أ ٠

الخامس : ألا ينبت نبات من الأرض ٠

السادس : أن يموت الامبراطور الكبير ـ فى قراقورم ـ فى تلك السنة ٠

غير أن هولاكو ـ لاصراره على فتح بغداد ـ طلب رأى السيد نصير الدين الطوسى ، الذى كان يرافقه أيضا فى هجومه على بغداد ، فقال نصير الدين : « لقد اتفق الجمهور وأهل الاسلام على أن عددا كبيرا من كبار الصحابة قد استشهد ولم يظهر بسبب موتهم فساد ، فان قيل هذا خاص بالعباسيين وحدهم فالجواب أن « طاهر » (٢٣) قد حكم خراسان ، وقتل أخوه محمد الخليفة الأمين ٠ أما المتوكل فقد قتله ابنه بعد أن تآمر مع أمراء الجيش ٠ وراح كل من المنتصر والمعتز ضحية لأمراء الجيش الذين قضوا عليهما ، وعلى هذا المنوال راح عدد من الخلفاء ضحية القتل والاغتيال ، ولم يظهر أى فساد أو خلل بقتلهم » ٠ فسر هولاكو برأى نصير الدين وانبسط خاطره ٠

ألم يكن بامكان علاء الدين عطا ملك أن يقوم بمحاولة مماثلة لكى يبرىء ذمته ؟ من الواضح أنه لم يفعل ، وأراد أن يبرر موقفه المتناقض هذا بقوله : « انها ارادة الله عز وجل » ٠

غير أن علاء الدين لم يكن كنصير الدين الطوسى ، فلقد كان علاء الدين سنيا محافظا ، بينما كان نصير الدين شيعيا اثنا عشريا ، عاش مع الاسماعيلية فترة ، فبدا وكأنه أصبح اسماعيليا ، كان علاء الدين عطا ملك أولى بأن يحرص على الابقاء على الخلافة ، لكنه ـ على كل حال ـ لم يعمد ـ مثلما فعل نصير الدين ـ الى التحريض على تدميرها ٠

ويبدو أن علاء الدين ظل يشعر بينه وبين نفسه بأنه ، وان لم يكن مسئولا عما حدث ، فهو على الأقل قد حضر الواقعة ، وشهد الحدث ، ذلك أنه توقف فى تأليف كتابه « جهانكشاى » عند سنة ٦٥٥ ، فساق الأحداث حتى القضاء على الاسماعيلية الملحدين فى « ألموت » ، ولكنه لم يستطع أن يدون بقلمه أحداث فتح بغداد ، أو يخط بقلمه وقائع انقضاء الخلافة ، وهى

---

(٢٣) يعنى به طاهر ذا اليمينين ٠ مؤسس الدولة الطاهرية فى خراسان وما حولها ، سنة ٢٠٥ هـ ٠

الوقائع التى ثقلت على قلوب المسلمين من أهل السنة ، فصعب عليه نعى الاسلام والمسلمين ٠

أما نصير الدين فقد كان ـ بمقتضى عقائده المذهبية (٢٤) ، من ناحية ، وتكوينه العلمى من ناحية أخرى ـ قابلا للحـــدث ، مطيقـــا لمقتضياته ، مسلما بنتائجه ، ولذلك كتب رسالة بعنوان « كيفية واقعة بغداد » (٢٥) طاوعته فيها نفسه على أن يشرح الواقعة ونتائجها بالتفصيل ٠

لكنه يبدو أن كلا الرجلين ـ علاء الدين عطا ملك الجوينى ، ونصير الدين الطوسى ـ كان مقتنعا بنفس المنطق ، وهو أن انقضاء الخلافة كان قضاء من الله عز وجل ، حتى وان كان قد تم على أيدى مجموعة من الكفرة البرابرة، فهم يمثلون غضب الله وسخطه ٠ فلقد وردت هذه الفكرة فى رسالة عربيـــة كتبها بنفسه نصير الدين الطوسى ، وبعثها على لسان هولاكو الى أهل الشـام ؛ يهددهم بالفناء التام اذا لم يستسلموا ، يردد فيها نفس الفكرة ، فيقول على لسان المغول :

اعلموا أنا جند الله ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل عليـــه غضبه ، لا نرق لشاك ، ولا نرحم عبرة باك ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ٠٠٠ دعاؤكم علينا لا يستجاب ، لأنكم أكلتم الحرام وأظهرتم البـــدع ، وحنثتم بالأيمان ، وضيعتم الجمعة ، وتنافرتم بالحسد والطغيان ، فاستبشروا بالمذلة والهوان ٠٠٠ وقد ثبت عندكم أننا كفرة ، وحق عندنا أنكم فجرة » (٢٦) ٠

---

(٢٤) راجع : مناقشة هذه القضية فى رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوى : المذهب السنى فى المشرق الاسلامى من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد ٠ رسالة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة (١٩٧٨ م) ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ ٠

(٢٥) ألحق النساخ تلك الرسالة بالجزء الثالث من « تاريخ جهانكشاى » ونشرت مع ذلك الجزء عندما صدر فى ليدن سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٧ م) بتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى ٠

(٢٦) هذه الرسالة مخطوطة محفوظة بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة بغداد ، برقم ٩٧٥ . وقد نشرها محققـــة الدكتور عبد الأمير الأعسم ضمن كتابه « الفيلسوف نصير الدين الطوسى » ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٥٧ وما بعدها ٠

وهكذا بدا لنا كلا الرجلين قد نظر الى القضية نفس النظرة تقريبا ، برغم اختلاف منطلقاته ودوافعه عن الآخر ·

ولعل علاء الدين قد أيقن ـ فى وقت من الأوقات قبل فتح المغول بغداد ـ أن الغزو المغولى لا يمكن ايقافه بأى شكل من الأشكال مع انعــــدام القوة الاسلامية ، ومن ثم عمد الى مسايرة المغول والعمل معهم ، خوفا على نفسه أو طمعا فى أن يأتى يوم من الأيام تعود فيه الأمور لنصابها ، والبضـــاعة لأصحابها ·

وربما شعر علاء الدين بعقدة الذنب ، وثقل الوزر ، لمصاحبة الغازى المغولى فى قضائه على الخلافة ، لكنه أخفى هذا الشعور ، الذى ظل يظهر على السطح كل مدة لاسيما بعد أن تولى علاء الدين حكم بغداد ، كما سنرى ·

٢ ـ علاء الدين ـ وحكمه لبغداد

الجوينيون يمسكون بازمة الادارة فى الدولة الايلخانية :

فى سنة ٦٥٧ ، وبعد مضى عام واحد على انقضاء الخلافة العباسية ، عهد هولاكو الى علاء الدين بحكومة بغداد ، يقول : « لما انتزع حاكم دار الملك ـ بحكم الآية الكريمة : تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ـ ممالك العراق وبغداد ، وخوزستان من خلفاء بنى العباس ، وأسلمها لسلطان الدنيا هولاكو وأودعه اياها ، عهد السلطان فى شهور سنة سبع وخمسين وستمائة ـ بعد مرور عام على فتح بغداد ـ عهد الى محرر هذه الأحوال (يعنى نفسه) بتدبير مصالح تلك الممالك ومهامها ، وأطلق يده فى حل وعقد الأمور ، ورتق وفتق مصالح الجمهور » (٢٧) ٠

وفى أوائل سنة ٦٦١ اتخذ هولاكو قرارا آخر بشأن أخى حاكم بغداد شمس الدين محمد الجوينى ، ففوض اليه الوزارة ، وهو المنصب الذى كان يعرف عندئذ باسم « صاحب ديوان الممالك » وأطلق يده فى تصريف أمور الدولة وتسييرها (٢٨) ٠ فكان هذا ايذانا بصعود نجم هذه الأسرة فى فلك الدولة الايلخانية المغولية فى ايران ٠

كان هولاكو ـ بعد أن أسقط الخلافة العباسية فى بغداد وقفل راجعا صوب الشرق ـ قد عزم على الاستقرار فى ايران ، وتكوين ملك يتوارثه أبناؤه من بعده ، على أن يظل هذا الملك تابعا للامبراطورية المغولية الرئيسية فى « قراقورم » ، فتأسست بذلك دولة الايلخانيين المغول فى ايران ٠ ولم يكد الأجل المحتوم يوافى هولاكو فى سنة ٦٦٣ ، حتى تم لقادة المغول فى المنطقة اختيار ابنه « اباقا » ليتولى العرش بعده ٠

---

(٢٧) رسالة تسلية الاخوان ، نسخة المكتبة الأهلية بباريس ، ق ٢٢٣ أ

وهذا يعنى أن ما ذكره المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمدانى فى كتابه : « جامع التواريخ » من أن علاء الدين تولى حكم العراق فى سنة ٦٦١ ، لا أساس له من الصحة على اعتبار أن علاء الدين أدرى بأحوال ومجريات حياته من غيره ٠ راجع : جامع التواريخ طبع كاترمر ص ٣٩٤ ، ٤٠٢ ، تعادل ص ٣٣٨ من الترجمة العربية ٠

(٢٨) جامع التواريخ ، طبع كاترمر ، نفس المواضع ٠

وسار آباقا على نهج سلفه فى التمكين لأسرة الجوينى ، فأبقى شمس الدين محمد الجوينى فى منصب الوزارة ، وأجرى تعديلا فى المنصب الذى يتولاه علاء الدين عطا ملك فأسند ملك بغداد وفارس الى أحد أمراء المغول الكبار ، واسمه « سونجاق » ، وجعل علاء الدين نائبا عن ذلك الأمير ، كما عين لفارس والعراق العجمى نائبا من أسرة الجوينى ينوب فى حكمها عن الأمير « سونجاق » ونعنى به بهـــاء الدين محمد بن الوزير شمس الدين الجوينى (٢٩) ٠

وظل علاء الدين عطا ملك طيلة عهد آباقا ـ من سنة ٦٦٣ حتى سـنة ٦٨٠ أى طيلة سبعة عشر عاما ـ الحاكم الفعلى المطلق لبغداد وكل العراق العربى ، وان كان يحكم ـ فى الظاهر ـ نائبا عن الأمير « سونجاق » ٠

جهود ملحوظة للنهوض بالعراق :

ربما انتهز علاء الدين فرصة حكمه لبغداد والعراق العربى لكى يكفر عن خطيئته التى ارتكبها بمصاحبته لهولاكو عند غزو بغداد ، فبذل جهدا كبيرا لكى يتخلص من عقدة الذنب هذه ، وصرف كل همه لتعمير البلاد ، وراحة العباد ، وأسقط عن كاهل الفلاحين مغارم كثيرة ، وبذل غاية جهده فى انشاء القرى والمزارع وقنوات الرى ، وأمر بحفر نهر فرعى من الفرات يبدأ من مدينة الأنبار ـ غرب بغداد ـ وينتهى الى الكوفة والنجف (٣٠) ، وبلغ قيمة ما أنفقه علاء الدين فى حفر هذا النهر مائة ألف دينار من الذهب الابريز (٣١) ، وأنشأ مائة وخمسين قرية على امتداد شاطىء ذلك النهر (٣٢) ٠ فتحولت المنطقة الواقعة بين الأنبار والكوفة ـ وكانت بلقعا لا زرع فيها ولا ضرع ـ الى منطقة تكسوها الخضرة وتتعانق فيها الأشجار ٠

كما أنشأ مدرسة ورباطا بجوار مشهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب

---

(٢٩) جامع التواريخ ـ طبع كاترمر ، أيضا ٠

(٣٠) تاريخ الاسلام للذهبى ، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٢ تاريخ ، جـ ٣٢ ، ورقة ٦ ٠

(٣١) تاريخ وصاف ، طبع بمباى ، ص ٥٩ ٠

(٣٢) تاريخ الاسلام للذهبى ، النسخة المذكورة ، ورقة ٦ ٠

ـ رضى الله عنه ـ فى النجف (٣٣) · ولم يمض وقت طويل حتى سار العراق العربى عامة ، وبغداد خاصة ، بخطى واسعة نحو العمران ، وتضاعف دخله وعمر سواده (٣٤) ، بعد أن كان قد تحول الى خراب من أثر الغزو المغولى ·

ولقد بالغ بعض الناس وقال : عمر صاحب الديوان ـ علاء الدين عطا ملك الجوينى ـ بغداد حتى كانت أجود من أيام الخلافة (٣٥) ·

ولقد كان علاء الدين فخورا بما عمل من أجل العراق وأهله ، وبأنه استطاع خلال مدة حكمه أن يعيد بناء العراق من جديد ، فهو يقول فى رسالة « تسلية الاخوان » التى ألفها فى سنة ٦٨٠ ، أى بعد ثلاث وعشرين سنة من حكمه لبغداد : « ولقد علم الخاص والعام أننا منذ أن باشرنا مصالح تلك البلاد أخذ العمران فيها يتزايد عاما بعد عام ، وتم كف أيدى المعتدين عن المنطقة بأسرها ، ولم يمض زمن طويل حتى عمرت الأراضى البور ، وجرت الأنهار السواقى ، وأضحى الخير دارا والبركة عامة فى تلك الديار ، وتضاعفت الأموال الديوانية وكثرت ، وتجمع الناس من البقاع القريبة والبعيدة ، واستقروا فيها ، وأقاموا بها الأبنية والبيوت والدور ، فصارت أكثر الخرائب عامرة ·

ان آثارنا (٣٦) تدل علينا : فانظروا بعدنا الى الآثار » (٣٧)

---

(٣٣) رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٣ أ ، وانظر أيضا :

تاريخ الاسلام للذهبى ، النسخة المذكورة ، ورقة ٧ · والرباط ، بالاضافة الى أنه يعنى محط رحال القافلة ، فانه يأتى أيضا بمعنى الموضع الذى يقيم فيه العلماء والصوفية (كالخانقاه) ، كما يرد أيضا بمعنى المكان الذى ينزل فيه الفقراء من الطلاب وغيرهم ·

انظر محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، مقدمة تاريخ جهانكشاى ج ١ ص لب · طبع ليدن سنة ١٩١١ م ·

(٣٤) تاريخ الاسلام للذهبى ، النسخة المذكورة ، ورقة ٧ ·

(٣٥) أيضا ·

(٣٦) فى الأصل : آثار ما ·

(٣٧) رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٣ أ ·

علاء الدين والنصارى في بغداد :

ويبدو أن أهل بغداد ـ وربما أهل العراق العربى جميعا ـ لم يكن يهمهم أمر الاصلاحات الاقتصادية والتوسع العمرانى فى بلادهم بقدر ما كان يهمهم أمر دين الاسلام ، وبقدر ما كان يهمهم موقف حاكم العراق من قبل المغول تجاه هذا الدين ، ذلك أن رئيس النصارى النسطورية فى بغداد (٣٨) قد أقدم على فعلة شنعاء فى حق الاسلام والمسلمين ، عندما قبض على رجل تحول منذ مدة عن النصرانية الى الاسلام ، وأراد اغراقه فى نهر دجلة ٠ كان لا بد لعلاء الدين ـ حاكم البلاد ـ أن يحسم الموقف ، ولكن يبدو أنه تردد متباطأ فى اتخاذ الاجراء المناسب (٣٩) ، وعند ذاك ثار أهل بغداد فى وجه علاء الدين ، والتفوا حول قصره مهددين متوعدين ، فما كان منه الا أن أرسل الى رئيس النصارى يطلب اليه اطلاق سراح الرجل ، فامتنع ، فتحول الناس الى منزل ذلك الرئيس ، عازمين على الانتقام منه بتقطيعه اربا ٠ ويبدو أن علاء الدين خشى أن تدب الفتنة ويتسع الخرق على الراقع ، فبادر لارسال جماعة من جنده فأحضروا الجاثليق خفية ، وأدخلوه الى القصر من أحد الأبواب السرية المشرفة على نهر دجلة ، فأنقذه بذلك من هلاك محقق ـ وتجنب اندلاع نيران فتنة يروح ضحيتها آلاف الأبرياء ٠

---

(٣٨) هو الجاثليق المسمى : « دنهـ » ٠ كما يشير أبو الفرج ابن العبرى الذى الف كتاب « التاريخ العام » باللغة السريانية ، وكان مقيما فى « مراغة » كما كان معاصرا لعلاء الدين عطا ملك ، واسم هذا التاريخ :

Be-Hebraeas Chronican syriacum

وعنه نقل « كاترمر » هذه الفقرة فى كتابه « الكنوز المشرقية » ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . انظر أيضا : الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى . مقدمة تاريخ جهانكشاى ، ص : لج ٠ أما صاحب كتاب الحوادث الجامعة فى المائة السابعة فيشير الى أن هذا الجاثليق يسمى « مرمليخا » (ص ٣٥٤) ، وفى مفاتيح العلوم للخوارزمى (ص ١٢٩) أن «القاثوليق» وهو الجاثليق ، يكون تحت يد البطريق ، ومقامه ٠٠٠ ببلد العراق مدينة السلام » ٠

(٣٩) كان الجاثليق « دنها » يحظى برعاية « آباقا خان » نفسه ، الذى حرص خلال فترة حكمه على التقرب لأباطرة المسيحية فى أوربا نكاية فى الاسلام ، ولذلك كان « دنها » قد حظى فى عهد آباقا بنفوذ كبير ٠ انظر عباس اقبال . تاريخ مغول ٠ طبع طهران ١٣٤٧ هـ ٠ش ، ص ٢٠٤ ٠ وربما كان علاء الدين يراعى فى تعامله مع دنها نفوذ هذا الجاثليق لدى السلطان المغولى ٠

وربما حفظ النصارى فى بغداد هذا الصنيع لعلاء الدين ، فلقد أنقذ أحد رؤسائهم من موت محقق ، وأخمد نائرة فتنة طائفية كانوا هم الطرف المستضعف فيها ، أما الطرف الآخر فهم المسلمون الذين لا بد وأنهم كانوا ـ فى ذلك الوقت ـ يتحرقون شوقا ، ويتلمسون منفذا للتعبير عن نفوسهم المكلومة منذ غزو المغول لبغداد ، وهى فتنة لا يعلم الا الله المدى الذى كان يمكن أن تصل اليه · ولكن علاء الدين تعرض فى سنة ٦٦٨ لمحاولة اغتيال توهم الناس أنها من صنع بعض النصارى ، يقول صاحب كتاب « الحوادث الجامعة » : « وفى خامس عشرين من جمادى الآخرة (سنة ثمان وستين وستمائة) ، ركب علاء الدين صاحب الديوان لصلاة الجمعة ، فلما وصل الى المسجد ··· ، نهض عليه رجل وضربه بسكين عدة ضربات ··· وأحضر الطبيب ، فسبر الجرح ومصه فوجده سليما من السم ، وأحضر الجارح ، وسئل عن موضعه ، فلم يقل شيئا وعاجله الموت ، لكن توهموا أن ذلك بوضع بعض النصارى » (٤٠) ولم يلبث علاء الدين أن تماثل بعد ذلك للشفاء ·

---

(٤٠) كتاب « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة » المنسوب الى كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى البغدادى ، طبع بغداد سنة ١٩٣٢ م، ص ٣٦٦ ، ويرى كاترمر فى الكنوز المشرقية ، ص ٢٢٦ ، ويتابعه محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى مقدمة جهانكشاى ج ١ ص لج ، اعتمادا على التاريخ السريانى لابن العبرى ، أن الذين قاموا بمحاولة الاغتيال انما هم جماعة من الملاحدة الاسماعيلية · غير أنه يبدو أن رواية صاحب الحوادث الجامعة أرجح لأن الاسماعيلية كان قد قضى عليهم منذ وقت ليس بقليل ، وانقطعت عن الناس اغتيالاتهم ·

٣ ـ وشايات وعداءات

ولقد بلغت المدة الاجمالية التى حكم فيها علاء الدين عطا ملك بغداد قرابة الأربع والعشرين سنة ، منها : نحو ٦ سنوات فى عهد هولاكو من سنة ٦٥٧ الى سنة ٦٦٢ • وسبعة عشر عاما طيلة حكم آباقا من ٦٦٣ ـ ٦٨٠ ء، ونحو سنة واحدة فى عهد أحمد تكودار من ٦٨٠ ـ ٦٨١ •

وخلال هذه الفترة الطويلة من حكم بغداد ، تعرض علاء الدين للعديد من محاولات الأعداء والوشاة بهدف عزله والقضاء عليه ، غير أن المكانة الرفيعة التى احتلتها أسرة الجوينى ـ أو بالأحرى أسرة صاحب الديوان ـ فى دولة المغول وقفت بين هؤلاء الأعداء والوشاة وبين تحقيق مآربهم (٤١)

ولقد اختلفت جنسيات هؤلاء الوشـــاة ومذاهبهم ، بقدر ما اختلفت وسائلهم ، لكن هدفهم ـ فى نهاية الأمر ـ كان هدفا واحدا ، هو الاطاحة بعلاء الدين عطا ملك وازاحته من منصبه المرموق •

ومن بين هؤلاء الوشاة رجل يقال له « قرابوقا » ، ويبدو من اسمه أنه مغولى ، شغل منصب « شحنة بغداد » واتخذ لنفسه نائبا يسمى « اسحاق الأرمنى » ، وقد اشترك الرجلان فى التآمر على علاء الدين ، وأرادا أن يوجها اليه تهمة من أشنع التهم عند المغول ، للتخلص منه نهائيا ، فقد اتفقا مع أحد الأعراب على أن يشيع بين الناس أن حاكم بغداد قد استدعاه من البادية وطلب اليه أن يكون له دليلا يدله على طريق غير مطروق يتجه نحو الشام ، حيث أن صاحب الديوان يعتزم الانطلاق بنفسه وأولاده وأمواله لاجئا الى المماليك •

كانت العلاقات بين الدولتين المغولية فى ايران والمملوكية فى مصر والشام فى أشد حالات الهياج والتوتر ، ويبدو أن المغول كانوا أكثر حساسية من المماليك فى هذا الصدد ، فقد شعروا بعداء شديد وبغض دفين تجـــاه المماليك • وأيقنوا أن أهم ما يتعين عليهم انجازه انما هو ايقاع الهزيمـــة

---

(٤١) انظر : محمد بن عبد الوهاب القزوينى ـ مقدمة تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ص لج •

بهؤلاء المماليك والقضاء على دولتهم فى مصر والشام ، وأعطوا هذا الهدف الأولوية على كل ما عداه ، فركزوا جهودهم لرفع استعدادهم العسكرى والنفسى الى درجة تمكنهم من الثأر لهزيمتهم أمام أولئك المماليك فى موقعه عين جالوت ، تلك الموقعة التى حطمت آمالهم فى السيطرة على العالم القديم كله ، وردتهم على عقابهم الى العراق بعد انسياحهم فى الشام وفلسطين . ولذلك ، فانطلاقا من هذه الحساسية ، كانت أقل شبهة اتصال بالمماليك كفيلة بأن تورد صاحبها ـ مهما بلغ شأنه ـ موارد الهلكة ، وتعرضه ، وتعرض كل من يمت اليه بأية صلة ، للهلاك المحقق .

أراد « قرابوقا » ، واسحاق الأرمنى استغلال هذه الحساسية لدى حكام المغول للايقاع بعلاء الدين صاحب الديوان ، فجاءا بهذا الاعرابى ـ الذى أخذ يبث اشاعاته المسمومة هنا وهناك ، وحاصرا قصر علاء الدين ثم اعتقلاه، وذهبا به ـ وبصحبته ذلك الأعرابى ـ الى بلاط « آباقا » الذى حرص ـ لبشاعة هذه التهمة ـ أن يحقق بنفسه فى الأمر ، لكن الأعرابى ما لبث أن اضطرب فى دولة المغول وقفت حائلا بين هؤلاء الأعداء والوشاة وبين تحقيق الأرمنى هو المعرض الأصلى له ، فأمر السلطان بقتلهما (٤٢) ، وأطلق سراح علاء الدين .

على أن محاولات الايقاع بعلاء الدين عطا ملك ، لم تقتصر على موظفى الديوان الطامعين فى منصبه ، أو العاملين على التخلص من رقابته الصارمة، وانما امتدت لتشمل بعض الأشراف الذين ينتمون الى العترة الطاهرة ، وينتسبون الى الأسرة النبوية الشريفة . فلقد عمل الشريف تاج الدين على بن محمد العلوى ، المعروف بابن الطقطقى (٤٣) ، على ازاحة علاء الدين من

---

(٤٢) أبو الفتوح بن العبرى ـ تاريخ مختصر الدول (وهو مختصر باللغة العربية من التاريخ السريانى السابق الذكر قام أبو الفرج بتلخيصه بنفسه) . طبع بيروت ١٨٩٠ م ، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

وانظر أيضا : الحوادث الجامعة ص ٣٥٢ .

(٤٣) هو أبو صفى الدين محمد بن الطقطقى ، مؤلف كتاب : « الفخرى فى الآداب السلطانية » ونلحظ آثار عداء المؤلف لعلاء الدين عطا ملك الجوينى فى أكثر من موضع فى ذلك الكتاب . فحينما يرد ذكر لعلاء الدين ينبرى ابن طباطبا للرد عليه وتكذيبه راجع كتاب الفخرى ، طبع المطبعة الرحمانية بمصر ص ١٢ ـ ١٣ ، ٣٨ ، ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ . وانظر فيما سبق ص : ٥ .

منصبه كحاكم لبغداد . وكان الشريف تاج الدين « قد ساعدته الأقدار حتى حصل من الأموال والعقار والضياع ما لا يكاد يحصى . ومن غرائب الاتفاقات التى حصلت له أنه زرع فى مبادىء أحواله زراعة كثيرة فى أملاك الديوان ، وهو اذ ذاك صدر البلاد الفراتية ، وأحرز ما تحصل له من الغلات فى دار كان قد بناها ولم يتمها ، وفصل حسابه مع الديوان ، وقد بقى له بقية صالحة من الغلات ، فأصاب الناس قحط شديد ، وسعر النقيب تاج الدين فى بيع الغلات ، فباع بالأموال ، ثم بالأعراض ، ثم بالأملاك ، وكان يضرب به المثل بذلك الغلاء ، فيقال غلاء ابن الطقطقى ... الخ » (٤٤) .

ويبدو من هذا النص أن الشريف تاج الدين كان على صلة بأعمال الديوان التى يشرف عليها الصاحب علاء الدين عطا ملك ، فلقد كان الشريف يستأجر أراضى زراعية من الديوان ، ويحقق من وراء ذلك أرباحا طائلة ، ولكننا لا نعرف السبب الذى أدى بهذا الشريف الى معاداة صاحب الديوان ، والوشاية به ، ومحاولة التخلص منه ، فلقد ورد فى « عمدة الطالب » عن النقيب تاج الدين « ... وترقى أمره الى أن كتب الى السلطان أبغا بن هولاكو فى عزل صاحب الديوان (يعنى علاء الدين عطا ملك) واقامة عوضه ، ووعده بأموال جزيلة ، واشارة ، وكفايات غريبة . فوقع كتابه الى الوزير شمس الدين الجوينى أخى صاحب الديوان عطا ملك ، فأخذ قرطاسا وكتب فيه :

كم لى أنبه منك مقلة نائم
يبدى سباتا كلما نبهتـــه

فكأنك الطفل الصغير بمهده
يزداد نوما كلما حركته

وعندئذ صمم علاء الدين على الفتك بابن الطقطقى ، فحرض جماعة على قتله ، ففتكوا به « وهربوا الى موضع ظنوه مأمنا ، أمرهم بالمصير اليه صاحب الديوان ، فخرج صاحب الديوان من ساعته الى ذلك الموضع ، فقبض على

(٤٤) جمال الدين أحمد بن على بن عنبه الحسينى العلوى : عمدة الطالب فى انساب ابى طالب ، طبع بومباى سنة ١٣١٨ هـ ، ص ١٦٠ .

أولئك الجماعة ، وأمر بهم فقتلوا ، واستولى على أموال النقيب وأملاكه وذخائره » (٤٥) ٠

على أن صاحب كتاب « الحوادث الجامعة » يذكر حادثة قتل تاج الدين ابن الطقطقى باقتضاب ، ولا ينسب قتله الى عطا ملك الجوينى (٤٦) ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد بدا الوزير شمس الدين الجوينى عينا ساهرة على أخيه علاء الدين ، يرقب الأحداث التى تجرى فى بغداد بكل همة ويقظة، ولا يغفل عن متابعة المؤامرات التى تحاك ضد أخيه علاء الدين ، خشية أن يأتى يوم لا ينفع فيه الندم ، فلقد كان شمس الدين على يقين من أن مؤامرة واحدة لن تعرض ـ اذا قيض لها النجاح ـ حياة علاء الدين وحده للخطر ، بل تستأصل أسرة الجوينى بأسرها ، وتقضى على أفرادها أجمعين ، وهذا ما حدث بالفعل فى النهاية لأسرة الجوينى ٠

ولذلك كان شمس الدين محمد الجوينى حريصـــا كل الحرص على ألا تنجح هذه المؤامرات . وكان منصبه كوزير للسلطان يمكنه من أن يقف سدا منيعا للحيلولة دون تسرب تلك المؤامرات ووصولها الى السلطان ٠ ولا شك أن علاء الدين عطا ملك كان يعتمد على أخيه اعتمادا كليا فى هذه

---

(٤٥) عمدة الطالب أيضا ـ وانظر أيضا : مقدمة كل من أهلورد ، ودرونبورغ فى طبعتيهما لكتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ، فقد أوردا هذا النص بتمامه نقلا عن عمدة الطالب ٠

(٤٦) راجع الحوادث الجامعة ، حوادث سنة ٦٧٢ ، ص ٣٧٧ ٠

منافس خطير للجوينيين :

لكن حدث ما لم يكن فى حسبان علاء الدين وأخيه شمس الدين ، فلقد برز منافس خطير فى الميدان ، أقض مضجعهما ، واستطاع ـ فى براعة ومهارة ـ أن يتسلل بعيدا عن متناول الوزير شمس الدين ، ويصبح بين يوم وليلة من المقربين الى السلطان وخاصته من كبار الأمراء ، ويحتل مكانة تؤهله للتأثير على القرارات التى يصدرها السلطان نفسه ٠

لم يكن هذا المنافس الخطير سوى مجد الملك اليزدى (٤٧) ، الذى ينتسب الى « يزد » من بلاد الفرس ، وهو ينتمى الى أسرة توارثت أعمال الديوان ووظائفه ، فلقد تقلد أبوه المسمى « صفى ملك » منصب الوزارة لأتابكة يزد (٤٨) ٠ وقد التحق مجد الملك بخدمة السيد بهاء الدين ابن الوزير شمس الدين الجوينى فى اصفهان ، وما لبث أن تدرج فى ذلك الجهاز الهائل الذى تشرف على ادارته أسرة الجوينى ، حتى ولاه الوزير شمس الدين نفسه مناصب رفيعة فى الدولة ٠

غير أن مجد الملك بدلا من أن يشكر اليد التى امتدت اليه بالعون والمساعدة والانعام ، بدأ يضمر الكيد لأصحابها والنيل منهم ، وأخذ يتطلع الى ازاحتهم من الطريق ، ليحتل هو تلك المكانة البارزة التى يتمتعون بها فى دولة المغول ٠

---

(٤٧) ترجم ابن الفوطى لمجد الملك اليزدى فى كتابه « معجم الالقاب » ٠ وقد نقل الترجمة المرحوم الأستاذ محمد رضا الشبيبى فى كتابه : « ابن الفوطى مؤرخ العراق » جـ ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٢ ٠

وانظر أيضا : « تلخيص مجمع الآداب من معجم الألقاب » لابن الفوطى أيضا ٠ تحقيق الدكتور مصطفى جواد ـ القسم الثانى ـ من الجزء الرابع ، ص ١٠٣٦ ، حاشية ١ ٠

(٤٨) انظر : محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، مقدمة كتاب « تاريخ جهانكشاى » ، ص لد ، اعتمادا على كتاب « جامع التواريخ » ، وظن الأستاذ عباس اقبال خطأ أن مجد الملك نفسه كان هو الذى تولى وزارة الاتابكة فى يزد ، ٠

راجع : عباس اقبال : تاريخ مغول ، طبع طهران سنة ١٣٤٧ هـ ، ش ، ص ٢٦١٠

وواتته الفرصة يوما ، عندما التقى بمجد الدين بن الأثير (٤٩) ، نائب الصاحب علاء الدين عطا ملك · وتطرق الحديث بمجد الدين الى ذكر المماليك فى مصر والشام ، وما لدى سلطانهم من شوكة وعظمة ، وما لجيشه من عدة وعتاد · ولم ينتظر مجد الملك ضياع الفرصة ، فسارع الى أحد أمراء المغول الكبار ، وزعم له أن علاء الدين يشعر بولاء شديد للمصريين ، ويتوكف ويتوقع قدومهم الى الأراضى الخاضعة لسيطرة سلطان المغول لتسليمهم مملكة بغداد ·

ولم يلبث هذا الادعاء الباطل أن انتقل الى آباقاخان ، الذى أمر بالقبض على مجد الدين بن الأثير وتعذيبه ، فضرب بالسوط خمسمائة ضربة ، ولما لم تثبت ادانته ، سلموه لشمس الدين الجوينى الوزير (٥٠) · وهكذا انتهت الدعوى ، ولم يصب الجوينيون بأى أذى ·

غير أن الوزير شمس الدين رأى أنه اذا بالغ فى الاغداق على مجد الملك ، وتناسى فعلته التى فعل ، فربما أدى ذلك الى استمالته الى جانبه ، ودفع شره · فأصدر أمرا يتولى مجد الملك بمقتضاه حكومة « سيواس » فى آسيا الصغرى ، ثم أمر له بمكافأة قدرها عشرة الاف دينار ، وبالشا (٥١) من الذهب واللؤلؤ الثمين · لكن مجد الملك ــ برغم هذا الاغداق والانعام ــ

---

(٤٩) اخو المؤرخ المعروف عز الدين بن الأثير ، صاحب كتاب الكامل فى التاريخ ·

(٥٠) جامع التواريخ ، نسخة المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوطة رقم Suppl. Pers. 209 ورقة ٣١٢ أ ، نقلا عن محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى مقدمة تاريخ جهانكشاى ، ص لز وما بعدها ·

وانظر أيضا : الترجمة العربية لجامع التواريخ ــ المجلد الثانى ــ الجزء الثانى ، ص ٧٦ ــ ٧٧ ·

(٥١) كانت « البالش » عملة مغولية متداولة فى الصين ، من الذهب والفضة والورق ، فى العصر المغولى ، ولكن ليس هناك ما يثبت تداولها فى العراق العربى فى هذا العصر ، انظر : الدكتور جعفر حسين خصباك : أحوال العراق الاقتصادية فى عهد الايلخانيين المغول (٦٥٦ ــ ٧٣٧) ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٦١ ، ص ٣١ · على أنه يبدو من نص جامع التواريخ أن هذه العملة كانت متداولة ــ ربما على مستوى الأعمال الديوانية ــ فى المناطق الخاضعة لنفوذ الايلخانيين فى ايران وآسيا الصغرى ، راجع جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، م ٢ ج ٢ ص ٧٧ ــ ٧٨ ·

ظل يضمر الكيد للجوينيين وانتهز فرصة مواتية ذات يوم ، فى سنة ٦٧٨ (٥٢) فتمكن من الوصول الى حضرة الأمير ارغون ابن السلطان آباقا ، وشكا من أنه يحاول جاهدا منذ أكثر من عام التشرف بمقابلة الأمير أرغون لكى يفضى اليه بحديث طويل ، فيه المصلحة والنفع للدولة ، لكن محاولاته كلها ذهبت سدى بسبب نفوذ الوزير شمس الدين ، فلقد كان الوزير يسارع فى الوقت المناسب لاحباط كل محاولة عن طريق رشوه الأمراء والمقربين ٠

ومضى مجد الملك فى كلامه للأمير أرغون قائلا : لقد تحقق عندى أن « كل ما يصل الى خزانة السلطان من كافة أرجاء البلاد لا يكاد يعادل ما حصله صاحب الديوان ـ يعنى الوزير شمس الدين ـ الذى وصل به نكران الجميل الى حد أنه تحالف مع مماليك مصر ، فحرض معين الدين بروانه (٥٣) على التآمر مع الملك الظاهر بيبرس البندقراد (٥٤) ، فأغار على آسيا الصغرى وقتل الكثيرين من أهلها ، وهزم بها جيش المغول هزيمة منكرة (٥٥) ، مما أفضى الى هلاك عدد من كبار أمراء الجيش المغولى الذى كان يحمى آسـيا الصغرى ، وها هوذا أخوه علاء الدين قد استخلص مملكة بغداد لنفسه ، واتخذ تاجا مرصعا بالجواهر لا يلبس نظيره الا السـلاطين ، وجمع من الخزائن والذخائر والأموال ما يخرج عن نطاق الحصر والعد » ٠

وطلب مجد الملك من الأمير أرغون أن يوفر له حماية كافية من أسرة الجوينى ، حتى يتمكن من اقامة الدليل على أن الوزير شمس الدين اشترى

---

(٥٢) جامع التواريخ ـ النسخة الخطية المذكورة ، وانظر أيضا : الترجمة العربية لجامع التواريخ ص ٧٧ ـ ٧٨ ٠

(٥٣) هو معين الدين سليمان بن على الملقب ببراونه ، استولى على الملك فى آسيا الصغرى التى كانت تعرف باسم « بلاد الروم » وصانع المغول وصالحهم ٠ وفى سنة ٦٧٥ أغار الملك الظاهر بيبرس على آسيا الصغرى . وقتل أغلب حكام المغول وأمرائهم ، فاتهم المغول بروانه بمصانعة بيبرس ، فأمر « اباقا » بقتله مع خلق كثير من أهالى آسيا الصغرى سنة ٦٧٦ ٠ وقد قام المغول بقطع أعضائه عضوا عضوا وهو حى ، وألقى فى مرجل وسلق ، وأكله المغول من شدة الغيظ ٠

انظر ترجمة حياته فى المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، نسخة دار الكتب المصرية (تاريخ ١١١٣) ج ٢ ، ورقة ١٢١ب٠

(٥٤) هو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ـ من سلاطين المماليك بمصر والشام ، وقد تولى الحكم من ٦٥٨ ـ الى ٦٧٦ ٠

(٥٥) وذلك فى سنة ٦٧٥ ٠

أملاكا قيمتها أربعمائة طومان (= ٤ مليون دينار) من أموال السلطان ، هذا بالاضافة الى ما يملكه فعلا من أموال وفيرة ، وقطعان ماشية ، وتقدر قيمتها بألفى تومان (= ٢٠ مليون دينار) . وقال : « لو أننا عددنا ما فى الخزائن السلطانية من أموال ، مع ما تم الاستيلاء عليه من بغداد وقلاع الملاحدة (الاسماعيلية) ، لوجدناه لا يزيد بحال من الأحوال عن ألف تومان (= ١٠ مليون دينار) . ونظرا لاطلاعى على هذه الأمور كلها ومعرفتى بها عمل صاحب الديوان ـ الوزير شمس الدين ـ على رشوتى فمنحنى حق السكوت فى صورة أمر يقضى بأن أتولى حكومة سيواس ، وبالمشا من الذهب، ومكافأة قدرها عشرة آلاف دينار » .

شعر أرغون بخطورة هذا الادعاء ، فأبلغه على الفور لأبيه السلطان آباقا ، الذى رأى أن يعالج الأمر بتؤدة وتريث ، فقال لأرغون : « لا تحدث أحدا بما قلت لى ، حتى نتدارك الأمر في روية وأناة » (٥٦) .

وبمضى الوقت ، وفى زحمة المشاغل والملاهى ، نسى آباقا ـ فيما يبدو ـ التحقق من مزاعم مجد الملك ، الذى ثابر حتى تمكن ، بمساعدة بعض كبار الأمراء (٥٧) من الوصول الى حضرة السلطان آباقا نفسه ، فى ربيع سنة ٦٧٨ ، وأعاد على مسامعه ما سبق أن قاله للأمير أرغون ، وزاد عليه ، الأمر الذى أثار غضب السلطان على صاحب الديوان شمس الدين الوزير ، فأرسل رسلا الى سائر الممالك والأقاليم ، للقبض على نوابه واحضارهم مع سجلاتهم لدراستها بدقة ومراجعة ما فيها بكل تمعن فى حضرة السلطان نفسه ، حتى يتمكن من الوقوف على واقع الحال .

وعند ذاك ظن مجد الملك أن جهوده الدائبة للنيل من أسرة الجوينى قد أينعت ، وحان قطف ثمارها . لكن الوزير شمس الدين بحكم علاقاته القوية وصلاته القديمة بأعضاء الأسرة الحاكمة منذ عهد مؤسسها هولاكو ،

---

(٥٦) جامع التواريخ ـ النسخة المذكورة ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٥٧) يقول علاء الدين فى « تسلية الاخوان » ورقة ٢٢٣ أ ان مجد الملك كان على صلة قوية بجماعة من الأمراء المقربين الى الايلخان ، « ولقد كان هؤلاء الأمراء يتطلعون الى أن تفوض اليهم ممالك بغداد ، مما زاد الطين بلة » . ولعل مجد الملك قد وصل الى بلاط آباقا عن طريق تدخل هؤلاء الأمراء .

يعرف كيف يدفع التهم عن نفسه ، ويعرف أين توجد مراكز التأثير والنفوذ ، فاستعان « بأولجاى خاتون » (٥٨) ، زوجة آباقا وكتب على نفسه حجة بأن كل أملاكه ومتعلقاته التى اشتراها خلال مدة وزارته انما هى ملك خاص للسلطان ، لا ينازعه فيها منازع ٠

وتدخلت أولجاى خاتون فى الأمر على الفور ، مستندة الى هذه الحجة وأخذت تثنى على الخدمات الجليلة التى نهض بها صاحب الديوان فى سبيل هذه الأسرة الايلخانية ، وما زالت بأباقا حتى ذهب عنه الغضب ، وأمر بعودة النواب الى أعمالهم ، وبألا يتعرض لهم أحد ٠ وهكذا أنقذت أولجاى خاتون صاحب الديوان وأسرة الجوينيين جميعا من تلك الورطة التى كان يمكن أن تكلفهم حياتهم ٠

علو شأن مجد الملك اليزدى :

واستبد اليأس بمجد الملك ، وشعر أنه انما ينطح الصخر ، أو يحارب السحاب ، لكنه ــ فى محاولة يائسة ــ رفع مذكرة الى آباقا جاء فيها : « اذا كان السلطان قد أنعم على صاحب الديوان ، فهذا يعنى أنه لا أمان لى منه فى اية لحظة ، وانى لأرجو أن يلحقنى السلطان بخدمة واحد من أمراء الدولة، ليدفع عنى شر الصاحب ، أو يصدر أمره لى بمغادرة هذه الدولة » ، فأجاب السلطان بقوله : « انى وان كنت قد أنعمت على صاحب الديوان ، لم أغضب على مجد الملك ، فعليه أن يلزم البلاط مع طغاجار و « جوشى » واردوقيا ــ وهم كبار الأمراء » (٥٩) ٠

حدث بعد ذلك تطور فى الموقف كان فى صالح مجد الملك كلية ، وذلك حين أصدر آباقا أمرا بأن يتولى مجد الملك اليزدى الاشراف على كافة الممالك، التابعة للدولة الايلخانية ، من شاطىء نهر آموى (٦٠) حتى حدود مصر ،

---

(٥٨) كانت زوجة لهولاكو ، وأصبحت بعد وفاة هولاكو ، وطبقا للعادة الذميمة عند المغول ، زوجة لابنه آباقا ٠

انظر : الترجمة العربية لجامع التواريخ طبع كاترمر ، ص ٢٢٢ حاشية ١

(٥٩) جامع التواريخ ــ الترجمة العربية ، م ٢ ج ٢ ص ٨٠ ٠

(٦٠) النهر الغربى من النهرين اللذين يحدان بلاد ما وراء النهر ٠

وأن يشارك صاحب الديوان شمس الدين الوزير فى الحكم · وتم اعلان ذلك الأمر ، الذى اتفقت الآراء على أن سلاطين المغول لم يصدروا أمرا مثله لأحد من الايرانيين وأهل البلاد الأصليين من قبل ، فى معبد مراغة ، فى حضور كل الأمراء والخواتين (الأميرات) ، وبعد اعلان هذا الأمر قال اباقا مخاطبا مجد الملك : « تعقل فى أمور الملك والمال والخزائن والعوائد ، وابذل جهدك فى الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة ، فنوابك يشرفون على كل الأمور ، وحافظ على حياتك ، ولا تتغيب عن البلاط بأى حال ، وان قصدك أحد بسوء فأنا كفيل بالرد عليه » (٦١) ·

ولقد أدى هذا التكريم البالغ الذى أحاط به السلطان اباقا مجد الملك الى ازدياد نفوذه وسطوته فى الجهاز الادارى للدولة بسرعة فائقة ، فدان له الجميع بالولاء ، « وصارت عتبته ملجأ وملاذا للكبار والصغار على السواء ، وبدأ نجم صاحب الديوان فى الأفول · وعلى الرغم مما كان يبديه من تجلد واحتمال أخذ نفوذه يتضاءل بالتدريج بحيث لم يعد ذا خطر » (٦١) ·

ويبدو أن الوزير شمس الدين وجد التيار غلابا ، والريح عاصفة شديدة. فقنع بمجاراة الزمان ومراقبة الموقف ، انتظارا لما تسفر عنه الأيام · فلقد أرسل اليه مجد الملك رباعيا فارسيا من الشعر ، ترجمته :

سوف أغوص فى بحر همومك
فقد يصيبنى الغرق ، وقد أستخرج الدرر

ان التعرض لك خطر كبير ، وسوف أخاطر
فقد يحمر وجهى تيها وفخرا ، أو تحمر رقبتى ذبحا وحدا

فأجابه الصاحب شمس الدين برباعى آخر ، ترجمته :

بما أننا لا نتحمل التطاول على الملوك
فقد كان لا بد من تحمل الكثير من المنغصات

---

(٦١) جامع التواريخ ـ النسخة المذكورة ، ٣١٣ ب ، وانظر أيضا : الترجمة العربية لجامع التواريخ م ٢ جـ ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١ ·

وهذا الأمر الذى أقحمت نفسك فيـــــــــه
سيضرج وجهك ورقبتك معا بالدم القـــانى

ولما رأى مجد الملك أن مكائده لا تؤثر فى الصاحب شمس الدين ـ اتجه الى اخيه علاء الدين ، وبدأ فى التفنن فى النيل منه (٦٢) ٠

٤ ـ علاء الدين شاهد على أحداث عصره

وفى أوائل ربيع الأول سنة ٦٨٠ توجه علاء الدين عطا ملك لمقـــابلة السلطان آباقا فى تبريز ، وبعد أن فرغ من توزيع الهدايا على الأمراء ورجال الحاشية والبلاط ، وتسليم التقاديم التى يتعين عليه أن يقدمها الى السلطان لدى قدومه ليحظى بشرف المثول بين يديه ، « سلمت الخزائن التى كانت معى (٦٣) ، وبعد نحو ثلاثة أيام سلمت خزائة أخرى حملتها معى باسم : فائض الأعمال والمصانع ٠ لكن : وفوق تدبيرنا لله تقدير ، اذ لم يكن للأمور الجارية أية صلة بحسن التدبير أو عرض الخزائن » (٦٤) ٠

صورة للبلاط الايلخانى :

يصف علاء الدين فى رسالته التى كتبها بعنوان « تسلية الاخوان » والتى حكى فيها ـ كما ذكرنا ـ أحداث السنة الأخيرة قبل وفاته ـ يصف مشاهداته فى بلاط الايلخان ـ أى السلطان المغولى ـ فى تبريز بقوله :

« لقد رأيت عالما يغلى ويمور ، ويصيح بعضهم فى وجـــه بعض فى غضب ، وجاء من أكثر الممالك أصحاب المناصب والدواوين ، عليهم مظاهر الأبهة والفخامة والجمال ، لكنهم ـ والحق يقال ـ كالأفاعى ، قد أخرجوا ألسنة الوشاية من أفواههم » (٦٥) ٠

---

(٦٢) جامع التواريخ ، نفس النسخة ، ورقة ٣١٣ ب ، والترجمة العربية ، ص ٨١ ٠

(٦٣) يشير رشيد الدين فضل الله ، فى كتابه جامع التواريخ ، الى أن علاء الدين كان يحمل معه خزانتين مملوءتين بالذهب ٠

انظر : محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، مقدمة جهانكشاى ص مخ ، حيث نقل قول رشيد الدين من جامع التواريخ ، نسخة المكتبة الاهلية بباريس ، ورقة ٣١٣ ب ٠

(٦٤) تسلية الاخوان ، ٢٢٥ ا ، من النسخة الوحيدة بالمكتبة الاهلية ، بباريس ٠ وانظر أيضا : الترجمة العربية لجامع التواريخ م٢ ج٢ ، ص ٨١ ـ ٨٢ ٠

(٦٥) أيضـــــا ،

كان هذا حال الموظفين الديوانيين ، ومعظمهم ـ بل جلهم ـ من أهل البلاد التى سيطر عليها المغول من بلاد فارس والعراق ، استخدمهم المغـول لتسيير الأمور فى الدولة ، فتسابقوا ـ وهم أهل دين واحد ، وربما أهل بلد واحد ـ الى الاندفاع فى الجو الفاسد العفن الذى كان يخيم على الادارة العليا فى الدولة المغولية ٠

« ومما زاد الطين بلة أن كبار أمراء المغول من أركان الدولة والمقربين الى حضرة السلطان ، قد أضمروا العداء والكيد لبعضهم البعض ، وكمن كل منهم للآخر حرصا على كشف معايبه ، وهتك مثالبه ٠ وأصبح لكل واحد من أهل البدعة والفساد ، ممن يروق لهم هذا الجو ، حاميا ومحرضا » ٠

وسيطرت الأهواء والأغراض الشخصية الدنيئة على المصالح العامة ، وتغلبت على الفضائل والخلق الرفيع ٠ « كان الأمراء ينضمون الى جماعات وطوائف يكيد بعضها لبعض ، ووصل بهم الأمر الى أنهم كانوا يهبون لانقاذ مختلس أو مذنب ، ويعملون على تبرئته وتخليصه من الهلاك المحقق ، لا لشىء الا لأنه يطعن فى عرض طائفة أخرى ، (ولم يكن ذلك على سبيل المروءة والنجدة بقدر ما كان يمثل) الهوى والغرض » ٠

ويستخلص علاء الدين النتيجة التالية مما رآه هناك : « فلما رأيت الحال على هذا المنوال ، أيقنت أن الأمر لا صلة له بالتدبير الصائب ، والرأى الثاقب » ٠

ربما كان علاء الدين قد أتى بهذه الأموال الكثيرة والخزائن المكدسة بالذهب ، يجعلها نثارا بين يدى الايلخان ، لكى يبرهن على مدى اخلاص هذه الأسرة الجوينية فى خدمة الدولة ، وفى التمكين لها ، وتنمية ايراداتها؛ فقد يؤدى هذا الى اقناع السلطان وكبار الأمراء بمدى الجدوى التى تعود عليهم من وراء خدمة هذه الأسرة العريقة ، وحسن تدبيرها فى تسيير الأمور، وهذا من شأنه تخفيف العبء الواقع على أخيه الوزير شمس الدين محمد ، والتهوين من شأن منافسيه ٠

لكن الأمر لم يكن كما تخيل ٠ وكان يتعين عليه عند ئذ أن يحدد موقفه، « فاما الرضوخ للقضاء والقدر ، واما انتهاج نهج أبناء الزمان فى تقبيح الصورة وفضح أسرار الآخرين ، افتراء وتزويرا ، والسعى بالنميمـــة

والوشاية ، ومن ثم التخلص من المهالك التى تتربص بالمال والروح · ان جماعة على هذا النحو قد تحققوا أن النجاة والفوز انما يكمن فى اتباع هذا الطريق، فتخلصوا بذلك من المطالبات » وتهيأت لهم الفرص لنهب أموال الدولة دون رادع أو رقيب » ·

كان لا بد لعلاء الدين أن يتشاور مع أخيه ، الوزير شمس الدين محمد، فى هذا البلاء الذى حل بالجهاز الادارى الأعلى للدولة · « فجلست مع أخى ، وقلنا : النار ولا العار ، ولتحل اللعنة على الدرهم والدينار » ·

ويريد علاء الدين أن يشير الى أن الأمور فى الدولة قد انقلبت هذا الانقلاب الخطير منذ ظهور المفسدين — مجد الملك وأمثاله — على مسرح الأحداث ، ومنذ اكتسابهم هذه المكانة التى نالوها فى البلاد ، ولكن الشر لم يكن ليقف عند حد : « فلئن كان هذا الأسلوب قد أطل برأسه منذ نحو عامين فقط ، فان الوشاية والنميمة وجدت لنفسها فى هذا العام — وهو سنة ثمانين وستمائة — أعظم الرواج ، وأصبحت المطالبات بالمظالم تجعل المرء يشعر وكأننا فى يوم البعث والحساب · وأخذ أهل الثقة والاعتماد — رغبة فى تفادى ما يجرى أمام أعينهم من مطالبات — يتبجحون بالسعاية والنميمة · كما استبد الطمع بالنواب والمساعدين فى منصب رؤسائهم وأستاذيهم ، وضربوا صفحا عن حقوق الصحبة والممالحة السابقة ، كما غضوا الطرف عن حق العيش والملح ، حق الدين » (٦٦) ·

ولعل علاء الدين يشير فى هذه الفقرة الأخيرة الى ما حدث من نائبه وصديقه ، وأخص ملازميه : مجد الدين بن الأثير ، الذى رافقه فى تلك الرحلة الى تبريز ، لكن مجد الدين ما لبث أن وقع تحت تأثير مجد الملك وأعدائه واغرائهم وانقلب ضد علاء الدين وأخذ يكيل له التهم ويروج حوله الشائعات· اذ يشير صاحب كتاب « جامع التواريخ » الى أن مجد الدين بن الأثير أخذ يتبجح بسؤال علاء الدين عطا ملك عن الايرادات أمام ملأ من الناس ، ويقول له : كم حصلت من المكان الفلانى ؟ وكم أخذت من فلان (٦٧) ؟ فلما رأى

---

(٦٦) رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٣ ب ·

(٦٧) جامع التواريخ ، نسخة المكتبة الأهلية بباريس Suppl. Pers. 1556 ورقة ٢٢٥ · نقلا عن الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، مقدمة تاريخ جهانكشاى — ص مخ ·

وأنظر أيضا : الترجمة العربية لجامع التواريخ م٢ ج٢ ، ص ٨١ — ٨٢ ·

الوزير شمس الدين حرج موقف أخيه ، وتكالب الأعداء والأصدقاء عليه ، أرسل الى علاء الدين يقول له : « لا تنكر شيئا على الاطلاق مما يقولون حتى لا تقع فى مأزق يصعب الخروج منه ، فلقد قيل : لا بارك الله بعد العرض فى المـال » (٦٨) ٠

والحق أنه كان ينبغى التضحية بكل شىء حتى لا يمس أحد كرامة هذه الأسرة ، وأمانتها ، وصيانتها لأموال الدولة ٠ فها هى ذى المخاطر تتربص بها من كل ناحية ، والمصائب تتوالى على من يطالب بأموال مزعومة للدولة فينكر ، « فلقد وصل معظم أصحاب الوشاية الى هدفهم اليوم ، وأصيب من سعوا فى حقهم بمصائب شتى ، ودواهى جمة ، اذ هلك بعضهم من جراء المطالبة بالمال ، وخرب بيته ٠ واضطر بعضهم الى اللجوء ـ منهزما ـ الى مكان بعيد نازح ، ونأوا بأنفسهم ، فأخذ أبناؤهم وأسروا ، وزج بهم فى السجون ، ونفذ فى البعض الآخر حكم « الياسا » (٦٩) ، وحل محلهم السفلة والجهال ، وكل من عاش يرى ما لا يرى » (٧٠) ٠

بغداد وشهرتها بين اقاليم الدولة الايلخانية :

يقول علاء الدين : « وليس بخاف على الأعزة والأخوة أن لبغداد وما يضاف اليها شهرة كبيرة للغاية فى الأقاليم ٠ وأن ما يتحصل منها ـ من مال ـ قليل جدا بالنسبة لما استقر فى الأذهان ، ولما يخرج من أفواه الوشاة الجهـــال ٠

وفى هذه الفترة انطبعت هذه الصورة فى مزاج الايلخان ، وحفرت فى ذهنه بقلم مختلف الألسنة ٠ لكنه أخذ يقيس تلك المعانى على ما كان يشاهده

---

(٦٨) جامع التواريخ . أيضا . ورقة ٣١٢ب . والترجمة العربية لجامع التواريخ ، ص ٨٢ ٠

(٦٩) قانون وضعه جنكيزخان ، التزم المغول به التزاما كاملا ، وجعلوه دستورا مقدسا لهم ، ومعنى « نفذ فيه حكم الياسا » قتل ٠ راجع : الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد ـ المغول فى التاريخ ، ص ٣٣٨ وما بعدها ، طبع بيروت ١٩٧٠ م ٠

(٧٠) تسلية الاخوان ـ ورقة ٢٢٣ ب ٠

من المصروفات اللازمة لمباشرة عمل كهذا ، من خدمات التقدمات للسلطان والخواتين والأخوة والأبناء ، والتحف والهدايا المختلفة ، وملتمسات أمراء البلاد وأركانها ، والأنعام المقدمة للضيوف والزائرين من أتباع السلطان وأشياع الأمراء وامثالهم • غير أنه لوفور عنايته وكرمه الملكى ، ورعاية لحقوق اللجوء والحماية ، ولسابق خدمتى التى بلغت ثلاثين سنة ونيف ، لم يكن ذلك الكلام يصادف عنده قبولا » •

كان المبلغ الذى طولب به علاء الدين كبيرا : « فلقد زعم الأعداء (يعنى مجد الملك وأعوانه) (٧١) أن فائض مال بغداد كل عام هو عشرون تومانا من الذهب (يساوى ٢٠٠ر٠٠٠ دينار ذهبى) (٧٢) ، لا يصل منها شىء للخزانة • ومن ثم يتبقى على علاء الدين مائتى تومان (٢ مليون دينار) هى قيمة ما تجمع لديه طوال السنوات العشر الأخيرة التى حكم فيها تلك الديار على سبيل الضمان • وأدخل أولئك الأعداء ذلك فى روع الايلخان (السلطان)، وزينوا له أن ذلك الفائض قد حملته أنا على شكل أموال ذهبية الى منزلى ودفنته فى باطن الأرض » •

ويدفع علاء الدين هذه التهمة عن نفسه ـ أمام قارئه ـ بقوله : « والحق أن حصول الفائض المذكور يعد بهتانا وزورا ، اذ لو تحصل هذا الفائض لمتعهدى التحصيل ـ والمبلغ يعد بالنسبة للزمن المالى أقل بكثير من العشر ـ بل لو تحصل لهم ضعفاه أو ثلاثة أضعافه ، لكان من المسلم به ـ وفقا لعادة ضمان الأموال الديوانية وما تقضى به « الياسا » المغولية ـ انفاقه فى صورة نفقات ومصاريف ضرورية ••

---

(٧١) يلاحظ أن علاء الدين عطا ملك لم يذكر اسم « مجد الملك اليزدى » أبدا فى رسالتيه اللتين كتبهما وشرح فيهما أحداث السنتين الأخيرتين من حياته ، ربما من باب ازدراء مجد الملك وتقبيحه •

(٧٢) يقول علاء الدين فى رسالة تسلية الاخوان (ورقة ٢٢٤ أ) ما ترجمته : « وفى وقت الخلوة وفرصة الغيبة قال ـ فى أثناء العرض على السلطان : ان الابن المرحوم (يعنى بهاء الدين بن شمس الدين الجوينى) قد استخرج من أعمال العراق (العجمى) التى كان يتولى حكمها ستمائة تومان ذهبى ، أى ما يعادل ستة آلاف ألف دينار ، زيادة عن المقرر » ، ومن ثم نجد أن التومان الذهبى يعادل عشرة آلاف دينار ذهبى ، راجع أيضا مقدمة القزوينى لجهانكشاى ، ص مد •

« ان المصروفات الكثيرة اللازمة للديوان ، بالاضـــافة الى الهدايا والتقدمات وشئون التعمير ونفقات الديوان ، كل ذلك اذا وضع فى مقابل الايرادات تأتى النفقات مساوية للفائض ٠

« وفى السنوات الماضية كنت قد سلمت أموالا على أنها فائض ، وكنت فى هذه السنة (يعنى سنة ٦٨٠) ، وقبل وصولى للمثـــول فى الحضرة السلطانية قد بعثت تقريرا بما تم تحقيقه من فائض فى الأموال ، فحاز رضا السلطان ، وشملت بالانعام ، وبمجرد وصولى سلمت هذا الفائض » (٧٣)٠

الخروج من المأزق :

غير أنه يبدو أن السلطان ــ برغم ذلك ــ قد اقتنع بما سمعه من الوشاة بأن حاكم العراق العربى يحتجن أموال الدولة ٠ ويخص بها نفسه ٠ وكـان يتعين على علاء الدين أن يتصرف مستخدما خبرته الطويلة بالشئون الادارية والمالية ، ودرايته الدقيقة بالظروف العامة المحيطة بالسلطان وبلاطه ، وقـد وجد أن « الوقت كان دقيقا للغاية ، فلقد كانت الخزانة بحاجة الى المال » (٧٤) كما وجد أن السلطان قد بدأ ــ بتأثير الوشايات ــ يشك فى أمانته واخلاصه ، فهداه تفكيره الى مخرج من هذا المأزق : « كنت فى السنوات السابقة قـــد حولت للخزانة مقررات الأموال ، وكنت قد أضفت فوق المقرر أضعافا مضاعفة٠ وذلك اننى لم أكن أحمل الدولة مسئولية الرعية (فى العراق) ولم أكن أستخرج الأموال مقدما مع القسمة ــ كما يفعل الولاة فى سائر الأقاليم ــ وكان أصحاب الاحالات (٧٥) يعتذرون بأعذار واهية لكننى لم أكن أرى الصلاح فى دفعهم ومنعهم (والضغط عليهم وتحصيل المال منهم بالقوة) ، وكان من المتعذر ــ فى الوقت نفسه ــ الاعتذار بعدم ارسال المال للخزانة ، فكنت أؤدى ــ مما يخصنى من مال ــ ما يتبقى على أرباب الحـوالات ، وكنت أرســـل الأحمال (٧٦) بصفة مستمرة على أن استردها فى المستقبل » (٧٧) ٠

---

(٧٣) رسالة تسلية الاخوان ٢٢٤ ب ٠

(٧٤) أيضـــا ٠

(٧٥) من يطلبون تأجيل مستحقات الديوان للسنوات القادمة ٠

(٧٦) جمع حمل : الأموال التى تحمل الى بيت المال أو الخزانة العامة ، انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ٠ طبع مصر ١٩٧٨ م ، ص ٥٨ ٠

(٧٧) رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٦ ب ٠

وهكذا تكونت لعلاء الدين عاما بعد عام أموال جليلة لدى الخزانة ، من جراء اقالته لعثرة أصحاب الحوالات ممن يتأخرون فى سداد ما عليهم من أموال لأعذار قد تبدو واهية ٠

« ولكى أخلص نفسى وأخلص الكثيرين معى من سوء مقالة هؤلاء الأراذل وافتراءاتهم قبلت سداد هذا المبلغ ، فتنازلت عن المبلغ الذى كان مستحقا لى لدى الديوان ، والذى كان مساويا تقريبا للمبلغ الذى ذكره أهل الوشاية » (٧٨) ٠

٥ ـ مجد الملك يواصل الكيد لعلاء الدين

لكن الأعداء كانوا لعلاء الدين بالمرصاد ، فدبروا مكيدة أخرى من شأنها أن تعجز علاء الدين عن الخروج من شراكها ، ففتشوا فى السجلات والدفاتر القديمة ، ووجدوا أن هناك متأخرات على علاء الدين منذ سنة ٦٦٩ ، بلغت ٢٫٥ مليون دينار ، وأن هذه المتأخرات لم تسددها بغداد الى الخزانة بأى وجه من الوجوه (٧٩) ٠

كان مجموعة من أمراء المغول قد كلفوا من قبل السلطان بالتوجه فى سنة ٦٦٩ لفحص حساب بغداد ، وفى ذلك الحين كان علاء الدين يباشر تسيير الأمور فى بغداد على سبيل الأمانة لا على سبيل الضمان (٨٠) ٠

ولم يكن لما تقول به الأعداء من متأخرات أى أساس من الصحة ، بل

---

(٧٨) رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٦ ب ٠

(٧٩) أيضـــا ٠

(٨٠) الأمانة : « حفظ شىء وعدم التصرف فيه سواء كان مالا أو غيره » ٠ ولعل علاء الدين يريد بالضمان هنا ضمان الرهن : « وهو ما يكون مضمونا بالثمن قل أو كثر » بمعنى أن علاء الدين كان يسدد فى حالة الامانة ما يتم تحصيله وفى حالة الضمان يسدد قيمة معروفة ومعينة كل عام ٠

راجع : القاضى الأحمد نكرى : جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ، بيروت ١٣٩٥ ، ١ : ١٧٣ ، ٢ : ٢٧٠ ٠

وانظر الدكتور محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ٠ طبع مصر ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ٠

هو كذب وبهتان · والحق أنه كان قد تأخر مبلغ ما ، لكنه كان منكسرا (٨١)، مثل ضمان « التمغا » (٨٢) ، وهى مبالغ لم يكن يتعهد بسدادها الا المتشردون والسفلة مما يتعذر استيفاؤه » (٨٣) ·

يعود علاء الدين بذاكرته الى ذلك التاريخ ، منذ اثنتى عشرة سنة ويقول : « كنت عندئذ قد صحبت جماعة الأمراء فى منصرفهم من بغداد متوجهين سويا للمثول فى الحضرة السلطانية · فأخذ كبار الأمراء يتحدثون فى مسألة تلك الأموال المتبقية ، ورأوا من الواجب اظهار الأمر على حقيقته ، واتفقوا جميعا ـ أثناء عرضهم على السلطان ـ على أن ما تبقى من أموال انما هو موجود لدى جماعة الضمان والرعية ، ولا يوجد منه شيء البتة فى حوزة فلان · فلما استنار خاطر الايلخان (السلطان) بهذا الرأى ، وأيقن أنه لا شأن لى بالأمر (ولا حيلة لى فيه) ، فضلا عن أنه لو استعملت الشدة فى استيفاء الأموال لكان ضرر ذلك أكثر من نفعه ، لأنها ستؤدى بالولاية الى الخراب وبالرعية الى التفرقة ، عند ذلك أبدى لى ضروب العطف والحدب ، وشملنى بالانعام ، وأمر بعودتى الى عملى ، فانقطع الحديث فى هذا الموضوع منذ ذلك الحين » (٨٤) ·

كان ذلك منذ اثنى عشر عاما ، أى فى سنة ٦٦٩ ، ولم يكن أحد يتصور أن تثار تلك القضية من جديد ، لكن الأعداء استطاعوا أن يدخلوا فى روع «آباقاخان» أن علاء الدين قد حمل النقود المتبقية فدفنها فى باطن الأرض فى منزله ، وزين هذا الظن فى قلب الايلخان وخاطره واستولت عليه تلك الفكرة استيلاء عجيبا (٨٥) ·

وقد اقترن وقوع ذلك بأمر أصدره آباقا لأخيه الأمير « منكوتيمور » لقيادة جيش جرار الى بلاد الشام ، أما السلطان نفسه فد سار الى « مشتاة

---

(٨١) المنكسر : « ما لا يطمع فى إستخراجه لغيبة أهله أو موتهم أو نحو ذلك » ·

(٨٢) تسلية الاخوان ٢٢٧ أ ·

(٨٣) أيضـــا ·

(٨٤) تسلية الاخوان ، ٢٢٧ أ ·

(٨٥) انظر رسالة تسلية الاخوان ٢٢٧ أ ·

بغداد » ، ثم توجه الى اربل والموصل فى رحلة صيد ، « وعزم على تفقد رحبة الشام » (٨٦) ٠

« فساق فيلقا من هناك ونزل على أطراف قرية تسمى « دير » (٨٧) وكلف جماعة من الجند فضربوا سياجا حول الرحبة لصيانتها من اللصوص (٨٨) ، وبقى هناك بضعة أيام للصيد والترويح عن النفس ، ثم أمر الجيش باختراق الرحبة ، وقطع الماء عن المزارعين ، ومن هناك عزم السلطان على العودة الى بغداد وسير جيشا كبيرا الى الشام فى اثر الجيش السابق، وقد تقدم محرر هذه الحروف لتدبير مصالح المنازل وترتيب ما يحتاج اليه الجيش واعداد المؤن اللازمة له ، ثم رجع الى بغداد فى غرة رجب سنة ٦٨٠ » (٨٩) ٠

وعندما اقترب علاء الدين من بغداد أثار مجد الملك (٩٠) مسألة الأموال المتبقية من جديد ، وذكر بها السلطان الذى أمر بمسير جماعة من كبار الأمراء فى اثر علاء الدين ، لاستيفاء تلك الأموال فلحقوا به فى تكريت وأبلغوه بأمر اباقا ، فأيقن علاء الدين أن الأمر جد ، « وأن أقوال أصحاب الأغراض قد أثرت تأثيرا حاسما فى خاطر السلطان » (٩١) ، ويبدو أن علاء الدين كان يظن أن ما قدمه من خدمات فى سبيل تجهيز الجيش المتوجه الى الشام ، وما بذله من جهود فى سبيل جعل اقامة السلطان طيبة فى منطقة العراق، سيدرأ عنه سعايات الساعين وأقاويل الوشاة والحاسدين ، ولم يخطر له على

---

(٨٦) الرحبة ، أو رحبة الشام ، مدينة على الضفة اليمنى الفرات ، عرفت فى العصر الحديث باسم الميادين ، وهى معروفة بخصوبة أرضها وغزارة مياهها وكثرة حدائقها ، انظر هذه المادة فى دائرة المعارف الاسلامية ٠

(٨٧) ورد اسم هذه القرية فى تاريخ الوصاف ، طبع بومباى ص ٩٨ ، « دير أسير » كما ورد فى جامع التواريخ ، م٢ ج٢ ص ٨٣ من الترجمة العربية « ديربير » ٠

(٨٨) الحق أن اباقا قد حاصر « الرحبة » ، ولم يكن هدفه حفظها من اللصوص كما سنرى ٠

(٨٩) رسالة تسلية الاخوان ، ٢٢٧ أ ٠

(٩٠) تاريخ الوصاف ، ص ٩٨ ٠

(٩١) أيضا ٠

بال أن يتأثر اباقا الى هذا الحد بتلك الوشايات ، لكن ظنه قد خاب على كل حـــال ٠

يقول علاء الدين « كان المقصود بالمطالبة بالبقايا هو تلمس السبل للحصـول على الذهب ، والذى قصدوا بأنه موجود فى المدرسة والرباط (٩٢) اللذين أنشأتهما بجوار مشهد عبيد الله على ٠٠٠ ـ وليس ثمت أثر لما يزعمون ـ فى أحواض ملأى عن آخرها » (٩٣) ٠

شمس الدين الجوينى ودوره فى انقاذ اخيه :

فى غمرة هذا الموقف الحرج تبدأ صورة الوزير شمس الدين الجوينى فى الظهور من جديد ، يقول علاء الدين : « كان يتناهى الى سمعى أن أخى ـ حماه الله ووقاه ـ قد استولى عليه القلق واستبد به الاضطراب والتبرم بسبب هذا الموقف ، فأصابنى الاضطراب بدورى لاضطرابه ، والا فقد كنت عند ذاك فارغ البال مرتاح الضمير من عدل الفلك وجوره ، وكنت حرا طليقا من عبء التفكير مسلما أمرى لارادة الحق تعالى ، لا أشكو ولا أتذمر ، بل كنت أرى ما حدث نعمة من الله بها على ، لا نقمة ، وتهذيبا ، لا تعذيبا ٠

وما لبثت أن أرسلت الى أخى خطابا أنكرت عليه قلقه ووجهت اليه اللوم لانقباضه ، وجرت هذه الأبيات العربية على خاطرى فدونتها فى الخطاب :

لئن نظـــر الزمـــان الى شــــزرا

فــلا تك ضـــيقا ، أفديك صـــدرا

وكـــن بالله ذا ثقـــــة (٩٤) فانى

أرى الرحمن فى ذى الأمـــر ســـرا

---

(٩٢) راجع فيما سبق ، ص ١٦ ٠

(٩٣) تسلية الاخوان ، ٢٢٧ أ ـ ٢٢٧ ب ٠

(٩٤) فى الأصل : واثقا ، ولا يستقيم به الوزن ، فصححناها على هذا النحو ٠

زماني ان رماني (٩٥) لا ابـالي

فقـد مارسـته يسرا وعسرا (٩٦)

مجمل القول أن علاء الدين اصطحب جماعة الأمراء المغـول ، وانطلق معهم من تكريت متوجها الى بغداد « حيث سلمتهم ما كان موجودا في الخزانة أو في داخل البيت من غض ويابس ، وفضة وذهب ، ومرصعات وجـواهر وأقمشة وملابس ، وكل ما آل الى عن طريق الميراث ، وكل ما ادخرته ، حتى الأواني النحاسية والخزفية ، وكل ما صغر أو كبر ، كما سلمتهم الأمـلاك ودور الضيافة والقصور والحمامات ، وأنواع الحيوانات من المماليك حتى الدواب ، وكل ما يدخل تحت نطاق الملكية ، حتى اني سلمت اليهم أيضـا سائر ما كان لخاصتي وأبنائي ··· وبعد هذا قبلت أن أقر على نفسي بخط يدي أنه لو ظهر فيما بعد ذهب يساوي درهما واحدا مدفونا في باطن الأرض أو مودعا لدى أحد ، لحق على العقاب ، ولوجبت على المؤاخذة » (٩٧) ·

كان يتعين على الوزير شمس الدين الجويني أن يتحرك ، ويبادر لانقاذ أخيه علاء الدين ، وكان شمس الدين يرافق السلطان آباقا في جولته الترويحية التي يقوم بها في نواحي العراق ، فلم يستطع شمس الدين الاستمرار في ملازمة السلطان لشدة شفقته ورأفته بأخيه علاء الدين وحدبه عليـه ، فاستأذن في الانصراف عن خدمة آباقا للتوجه الى بغداد · « وعندما وصل الى بغداد بز الجميع في الجد والحرص على تحصيل المطلوب ، وأخذ يبـذل جهدا هائلا · وكان يبغي من وراء ذلك العمل بحسن تدبير على زيادة ما يتـم تحصيله من مال ، لكي يقع من السلطان موقعا حسنا عند العرض عليه ، فتنحل تلك العقدة التي استحكمت » (٩٨) ·

---

(٩٥) في الأصل : زماني ، ولا يستقيم به المعنى ، فصححناها على هذا النحو ·

(٩٦) تسلية الاخوان ، ب ٢٢٧ ·

(٩٧) تسلية الاخوان ٢٢٧ب ـ ٢٢٨أ ، ويشير مؤلف جامع التواريخ الى هذه الواقعة بقوله : « وقد سلم علاء الدين كل ما يملكه حتى ما كان قد اشتراه للنساء والولدان ، ثم حرر اقرارا بأنه يعد مذنبا لو ظهر فيما بعد شيء بمقدار درهم واحد » . جامع التواريخ النسخة المذكورة . ورقة ٣١٤ أ ، نقلا عن القزويني في مقدمة جهانكشاي ، ص س · وانظر ايضا الترجمة العربية لجامع التواريخ م٢ ج٢ ص ٨٤ ·

(٩٨) تسلية الاخوان ٢٢٨ أ ·

لقد شمر شمس الدين الجوينى عن ساعد الجد لكشف الغمة عن أخيه علاء الدين ، بل لكشفها عن نفسه وسائر أفراد الأسرة الجوينية ، « وقد بدأ أولا بنفسه فأخرج كل ما كان فى منزله ومنازل أولاده من الأوانى الذهبيـــة والفضية ، والجواهر والمرصعات ، ثم أحضر كافة النواب والمعتمدين واقترض من كل منهم ما استطاع اقتراضه ، فأضاف بذلك على كل هذه الأموال أموالا أخرى ٠٠ مجمل القول أنه بذل كل ما فى وسعه واستنفد كافة الوســـــائل فى التحصيل » (٩٩) ٠

وفى ذلك الحين « وصلت المواكب السلطانية الى « دجيل » فحمل أخى كل ما يمكن حمله وعرضه على السلطان من جواهر وملابس وبضائع وأوانى الذهب والفضة وتوجه بها الى حضرة السلطان ٠ ولما كان ذلك كله لا يبلغ عشر معشار ما أدخله الأعداء فى روع السلطان وأذنه ، صـــار عرض الحـــــال واجتهاد أخى ـ طال عمره ـ على وجه يتسم بالمراقبة والمجاملة ، ولم يعلم أحد أمر مساعدته ومعاونته فى هذا الصدد ٠٠ على أن اعصار النكبة لم يلبث أن ذهب بكل تدبير ورأى انســــــانى ، ولهذا صـــدر الأمر الى تغاجـــار يارغوجى (١٠٠) و (مجد الملك) (١٠١) وأمراء الاستيفاء بالقدوم الى بغداد، كى يستخرجوا الكنوز الدفينة والجواهر الثمينة التى زعموا وجودها» (١٠٢)

التعـــذيب :

لقد خاب اذن مسعى الوزير شمس الدين ، ونظر اباقا الى ما أتى به وزيره من مال وجواهر وذهب وفضة ، لكى ينقذ أخاه من ورطته ـ نظـــرة كلها استهزاء وازدراء ٠

---

(٩٩) أيضـــــا ٠

(١٠٠) يبدو أن هذا الأمير المغولى كان من كبار أمراء البلاط ، كما كان يبسط حمايته على مجد الملك العدو اللدود للجوينيين ، انظر فيما سبق ص ٢٦ ٠

(١٠١) اضافة من جامع التواريخ ، النسخة المذكورة ، ورقة ٣١٤ أ تعادل ص ٨٤ من الترجمة العربية لجامع التواريخ ، م٢ ج٢ ، وقد سبق أن أشرنا الى أن علاء الدين لم يذكر فى هاتين الرسالتين اسم مجد الملك من باب تحقيره وازدرائه ، راجع فيمـــا سبق ص ٣٢ ، هامش ٧١ ٠

(١٠٢) تسلية الاخوان ٢٢٨ ب ٠

ويبدو أن فشل الحملة ، التى شنها آباقا على الشام ، قد أثر على موقفه من شمس الدين وأخيه علاء الدين ، فلقد منى جيش « منكوتيمور » بهـزيمة كبيرة فى موقعة حمص بالشام يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ ،وولى الجيش الأدبار ، كما لم تجد المحاولات التى بذلها آباقا نفسه لفتح الرحبة بعـد حصارها الطويل ، وبذلك كان نصيب هذه الحملة أيضا هو الفشل ، كسابقتها من الحملات التى شنها المغـول الايلخـانيون على المـاليك فى مصر والشام (١٠٣) ٠ وربما أثر هذا الفشل على القرار الذى أصدره آباقا فى حق علاء الدين ٠

فلقد بادر آباقا باصدار أمره،الذى عهد فيه لأعداء الجوينيين والحاسدين عليهم بالقيام بأنفسهم بالبحث والتفتيش ، وهو يعلم تمام العلم أن هـؤلاء الأعداء لن يتركوا وسيلة ـ حتى ولو كانت دنيئة ـ الا وتوسلوا بها لكشف الدفائن والكنوز ٠ وكان أول ما فعله تغاجار ومجد الملك وأعوانهمـا أنهم « أحضروا جماعة خزان الخزائن الداخلية والخارجية ، وبذلوا غاية الجهـد فى الكشف والبحث والتتبع ، وعزلونى على انفراد بعيدا عن الأقارب فى منزلى ٠٠ ثم بدأوا بعد ذلك فى تعذيب الثقاة والمعتمدين ، واستمروا فى تعذيبهم عدة أيام ثم دوشخوهم (١٠٤) ، وذهب الأمراء مرتين أو ثلاثا الى رباط بغداد ومدرستها اللذين كنت قد أنشأتهما بها ، حيث توجد مقبـرة جماعة من الأطفال والأعزاء ، وشرعوا فى التنقيب والبحث ونبش القبـور ، فلما فقدوا الأمل فى العثور على الدفينة المتـوهمة جمعوا السـجاجيد والمفروشات والأثاث والأقمشة التى كانت موجودة على سطح الأرض فى المقابر والمساجد والرباط ، ولما لم يبق شىء لم يتم تفتيشه قاموا بحـرق الملابس الجديدة والقديمة وأثاث البيت ولم يتركوا حتى الأطعمة والأدوات المستخدمة فى البيوت ، كما جمعوا الأطعمة والأشربة التى كنا قد أعددناها لارسالها الى مستشفيات تبريز ، وخراسان ، وتستر ، والموصل وغيرها ، وأحرقوا ذلك كله عن آخره » (١٠٥) ٠

---

(١٠٣) كوقعة البيرة (سنة ٦٧١) وابلستين فى آسيا الصغرى (٦٧٥) ٠
انظر : عباس اقبال ، تاريخ مغول ، ص ٢١٣ ، ٢١٦ ٠

(١٠٤) دوشخ : أى عذب بآلة تسمى : دوشاخه (انظر الحوادث الجامعـة ص ٣٤٩ حاشية ١) ، ويبدو ان هذه الكلمة الفارسية الأصل ، قد استخدمت فى العربية فى تلك الفترة ، ومعناها : ذات الفرعين ٠

(١٠٥) تسلية الاخوان ، ٢٢٨ ب ٠

وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد ، بل التفتوا الى علاء الدين نفسه فنقلوه من مكانه الذى كان فيه الى « قصر المسنى » ، وفكوا قيده الحديدى، ووضعوه على الدوشاخة (١٠٦) • يصف صاحب كتاب «الحوادث الجامعة»، الذى كان شاهد عيان ، هذا الحدث بقوله : « وفى سنة ثمانين وستمائة قبض السلطان على علاء الدين صاحب الديوان وأصحابه ونوابه ، وسلم الى الصاحب مجد الملك ، فاستوفى منه أموالا كثيرة وبيع من أملاكه وأسبابه جملة طائلة ، ودوشخ ، وألقى تحت دار المسناة التى بأعلى بغداد على شـــاطىء دجلة ، مكتوفا عليه قميص واحد ، وكان البرد شديدا جدا ، وضرب خواصه وخدمه وأتباعه واستوفيت الأموال منهم » (١٠٧) •

ويبدو أن مجد الملك وأعوانه قد رأوا أن الزج بعلاء الدين فى السجن وتعذيبه من شأنه أن يخيف أعوانه ، لكن مجد الملك « لم يجد شيئا برغم ما استخدمه من فنون التعذيب والترهيب فلم يكن هناك من المدخرات القديمة والحديثة الا ما سبق عرضه فى أول الأمر » (١٠٨) فضلا عن أن أهل بغداد وقفوا جميعا مع علاء الدين فى محنته ، ولم يشهد عليه أحد زورا : « بل كان عموم أهالى مملكة بغداد مشاطرين لى فى الواقعة التى جرت ، شركاء لى فى مشاعرى صباح مساء » (١٠٩) •

« وفى نهاية الأمر ، لما رأوا أن الحال يسير على هذا المنوال حملوا كل ما تبقى ـ صغيرا كان أو كبيرا ، وسارعوا به حضرة السلطان لعـــرض الأمر » (١١٠) •

الخـــلاص :

وهنا تبدأ الجهود ـ التى يبدو أن الوزير شمس الدين الجوينى قـــد بذلها ـ فى النجاح ، فالواضح أنه تمكن أخيرا من اقناع كبار الأمراء والأميرات

---

(١٠٦) انظر تسلية الاخوان ٢٢٩ أ وراجع فيما سبق ، هامش ١٠٤ •

(١٠٧) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ •

(١٠٨) تسلية الاخوان ، ٢٢٩ أ •

(١٠٩) أيضـــا ٢٢٢ ب •

(١١٠) أيضـــا •

بالتدخل فى الأمر (١١١) لصالح أخيه علاء الدين ، وذلك فى وقت بلغ فيه نفوذ هؤلاء الأمراء وتأثيرهم على السلطان شأوا بعيدا ، يقول علاء الدين : « وقام الأمراء والأميرات- أثناء الحديث مع السلطان- وضربوا (جوك) (١١٢) على سبيل التعظيم ، وجددوا طلب الصفح والانعام الذى طالما سبق لهم التماسه صباح مساء • وعلى الأخص من الأميرات «بولوغون خاتون» (١١٣) ومن الأمراء ، «قونقور آتاى» (١١٤) ، فاستجاب السلطان لطلبهم ، وفى يوم الخميس الرابع من شهر رمضان سنة ثمانين وستمائة شملنى الانعام فخرجت من مضايق اليأس والقيد والحبس ••• » (١١٥) •

كان لابد لعلاء الدين ، وقد برئت ساحته وشمله الانعام ، أن يمثل فى حضرة السلطان ، ويبدو أنه توجه فى معية مجموعة من كبار الأمراء الذين ساعدوا على اخراجه من محنته هذه • وفى هذه المقابلة أجمع هؤلاء الأمراء على أن الأموال المتبقية - كبرت أم صغرت ، لا شأن لفلان بها ، وانما هى بقايا منكسرة على الرعية ، ولو تم استيفاؤها ستؤدى الى خراب البلاد • وعند ذاك ، تلطف السلطان معى فى القول ، وضرب صفحا عن الموضوع برمته » (١١٦) •

وقبل أن يختتم علاء الدين رسالته المعروفة « بتسلية الاخوان » يسبح بحمد الله عز وجل ، وبفضله عليه ، فلقد كانت هذه المحنة بالنسبة له تعليما وتهذيبا وتصفية من الشوائب والكدر • وكان علاء الدين فى أول رسالته تلك - قد أشار الى عزمه على اعتزال العمل لكى يمضى بقية عمره فى رضا

---

(١١١) مثل ما فعل فى محنة علاء الدين الأولى ، انظر فيما سبق ، ص ٢٥ - ٢٦•

(١١٢) « ضربوا جوك ، وهو الخدمة عندهم ، وكيفيته أن يبرك الرجل منهم على احدى ركبتيه ، ويشير بمرفقه الى الأرض . وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم » (نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، نقله عنه كاترمر فى حواشى جامع التواريخ ص ٣٢٣) • وانظر أيضا القزوينى . مقدمة تاريخ جهانكشاى . ص مح •

(١١٣) من أحب نساء آباقا اليه - أنظر جامع التواريخ ، النسخة المذكورة ، ورقة ٢٩٦ ب ، ص ٨٨ ، ٨٩ من الترجمة العربية لجامع التواريخ •

(١١٤) أخو السلطان آباقا ، وقد قتله أخوه الآخر المعروف بالسلطان أحمد بعد جلوسه على العرش سنة ٦٨٢ ، انظر : جامع التواريخ رقم ٣١٨ •

(١١٥) تسلية الاخوان ، ٢٢٩ ب •

(١١٦) أيضا ، ٢٣٠ أ •

الله عز وجل والاستغفار لسوابقه من الذنوب والآثام ، يقول : « ولما كنت قد رأيت مثل هذه الوقائع والمصائب كرة بعد كرة ، ومرة بعد مرة ، وضاعت ليالى الشباب ، وهى رأس مال الحياة ، على هذا المنوال :، وانقلبت أيام الكهولة بدورها رأسا على عقب ، استقرت النية على الاعتزال والانزواء ٠ (نظم فارسى ترجمته :)

ـ لقد مضى من العمر ما كان طيبا ، مضى كما تمضى الرياح عبر السهول

لأنسحبن بنفسى مرة أخرى ، ولاكفن يدى عن الأعمال والأشغال الدنيوية التى تليق بالشباب الباحث عن الشهرة ، ولأخطون فى طريق الآخرة ، ولأعدن زاد الطريق الطويل البعيد الذى ينتظرنى » (١١٧) ٠

وعلاء الدين يشير هنا الى نفس المعنى قائلا انه لم يعد فى العمر بقية تذكر ، ويستشهد بحديث النبى صلى الله عليه وسلم : أعمار أمتى بين الستين والسبعين ٠ كما يستشهد بالأثر من الحديث القدسى : يا دنيا من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه ٠ ثم يثنى بعد ذلك على السلطان (المغولى) الذى ظهر الحق على يديه ٠ وكان فى منتهى الحلم والكرم ، فعفا وغض الطرف ، برغم اشتعال نائرة الغضب فى نفسه ، تأثرا بأقوال كل من هو « أبو لهب » ٠ وبرغم انشغاله الشديد فى أمور الجمهور ٠

وأشار فى النهاية الى أن ما يمكن استخلاصه من هذا الدرس هو القول المأثور : المقدور كائن والهم فضل (١١٨) ٠

صلة لرسالة تسلية الاخوان :

أشرنا من قبل الى أن الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى قد عثر فى ذيل احدى النسخ الخطية لكتاب « تاريخ جهانكشاى » ، تأليف علاء الدين عطا ملك الجوينى ، على رسالة أخرى ليس لها عنوان ، لكنها مكملة لرسالة تسلية الاخوان ، كتبها علاء الدين بنفسه أيضا ٠ وقد تسلسلت حوادثها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ بعد تسلية الاخوان مباشرة ، ولذلك فهى تعد صلة وتكملة

---

(١١٧) رسالة تسلية الاخوان . ورقة ٢٢٤ ب ٠

(١١٨) انظر : رسالة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٣٠ أ ٠

لتسلية الاخوان · وتنطوى هذه الرسالة على أهمية بالغة ، فهى تتمة لتلك السيرة الذاتية التى بدأ علاء الدين بتدوينها عن السنوات الأخيرة من حياته عندما كان حاكما للعراق ، وتنتهى أحداث هذه الصلة فى جمادى الأولى سنة ٦٨١ ، أى قبل وفاة علاء الدين بنحو ستة أشهر ، اذ توفى – كما سنرى – فى ذى الحجة من السنة نفسها ·

وقد أفاد الأستاذ القزوينى – رحمه الله – بهذه الصلة أثناء تأريخه لحياة علاء الدين وعرض مؤلفاته ، وذلك فى المقدمة القيمة التى كتبها للجزء الأول من « جهانگشاى » ،وهو الجزء الذى قام القزوينى بتحقيقه ونشره ضمن سلسلة جب التذكارية البريطانية ، فى سنة ١٩١٢ م ·

وسنحاول فيما يلى الافادة – بصورة أوسع – من هذه الصلة ، لتقديم صورة واضحة لحاكم بغداد والعراق العربى فى ذلك الحين ، من خلال أفضل المصادر وأوفاها وأوثقها ، أعنى من خلال ما كتبه علاء الدين بنفسه عن نفسه ·

٦ – سعاية جديدة يدبرها الأعداء

يقول علاء الدين : « لما استنفد جماعة الأعداء كل سهام الكيد التى وضعوها فى جعبة التزوير ، ولم يظهر شىء على الاطـــــلاق من المدفونات والأموال المودعة المتوهمة، ولم يشك (١١٩) منه مخلوق ، ولم يثبت عليه ذنب، خافوا عاقبة سيئات أفعالهم وأكاذيب أقوالهم ، باتوا فى قلق من نتيجة فعلهم وقولهم لأنهم لم يصلوا الى بغيتهم ومرادهم · لذا بدأ هؤلاء المفسدون يعقدون الاجتماعات من جديد فى الخلوات ، واستقروا بعد تفكير طويل على أن يلوثوا عرضى ، وأن يسودوا الوجه الأبيض للاخلاص بشامة الغدر ، وذلك عن طريق زعمهم بأننى أكاتب ملوك مصر والشام ، فيتوصلوا من هذه الثغرة الى تغيير مزاج الايلخان (يعنى السلطان) ·

« ولقد وقعوا على رجل مغمور من اليهود وكلفوه بأن يخط بمـــــاء

(١١٩) كذا بلفظ الغائب ، والمقصود هنا هو علاء الدين نفسه ، وقد حولنا ضمير الغائب أثناء ترجمة النصوص الفارسية الى ضمير المتكلم ، منعا للبس وحرصا على اتساق السياق ·

الزعفران خطوطا على « جريدة الجند » ، ثم يحرفون الجريدة بالطلسمات ·
غير أنهم احتاجوا الى جماعة من المساعدين المقربين لأقوالهم ، وشهود
الزور · وظلوا بضعة أيام يظهرون بأنهم حريصون على تسكين ثائرة الشر ،
ولكنهم كانوا يثيرون بركان الزور فى الخفاء ، ووقع عليهم قول الحق تعالى :
« قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر
عليم » (١٢٠) وجدوا فى البحث عن أهل الفساد ، وفى النهاية اتفق معهم
جماعة من مفسدى النصارى ـ الذين كان الجاثليق قد أعلن حرمانهم (١٢١) ـ
فى ذلك التزوير ·

··· هذا الى جانب اثنين أو ثلاثة من الرعاع وأولاد الزنا ، قبلا
وسوسة ابليس بظن اكتناز الأموال » ·

وبعد أن أعد مجد الملك وأعوانه عدتهم وأخذوا أهبتهم « ساروا الى
خانقين » فى اثر المواكب الايلخانية ، وهناك عرضوا دستور المكائد التى
كانوا تواضعوا واتفقوا عليها سوية ، أملا فى أن يجرى محصلو الأموال
تحقيقا فى الأمر ، فيصدقون ما يزعم الأعداء من أكاذيب ، ويظهر الباطل
فى لباس الحق ·

« فلما عرف الايلخان ـ بفضل فراسته الملكية ـ أن كلامهم كذب وافتراء ،
عهد الى أحد المقربين لحضرته باحضارى ، مع شهود الزور الذين أملى
عليهم الأعداء ما قالوه ، حتى يتم البحث والكشف عن حقيقة تلك الأقوال فى
بلاط السلطان » ·

كان مجد الملك حريصا كل الحرص على مرافقة مبعوث الايلخان الى
بغداد حتى يستطيع أن يتدبر الأمور هناك ويوجه الأحداث الى الوجهة التى

---

(١٢٠) سورة الأعراف آية ١١٢ ·
(١٢١) لعل علاء الدين يريد بهذه الجملة الاعتراضية أن يشير الى أن طائفة النصارى فى بغداد وعلى رأسهم الجاثليق لم يكونوا مسئولين عما حدث ·
راجع أيضا فيما سبق ، ص ١٦ ، ١٧ ·
(١٢٢) انظر صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٦٤ ·

يريدها وقد اشتملت خطة مجد الملك وأعوانه ـ لدى وصولهم مع المبعـوث الى بغداد ـ على ثلاثة جوانب :

الأول : القاء القبض على علاء الدين ، « فلقد هداهم تفكيرهم الى أننى طالما كنت مطلق السراح فلن يتسنى لأحد أن يلتقط حبة الخداع فيقع فى شباك خديعتهم » ، وما زالوا بمبعوث السلطان حتى أمر بالقبض على علاء الدين ٠

الثانى : زينوا لمبعوث السلطان حكومة بغداد ، وربما وعده مجد الملك بمعاونته فى توليها بعد التخلص من علاء الدين ، وكان هدفهم من وراء هذا دفع المبعوث نحو الاتجاه الذى يسيرون فيه ، فيجاريهم فيما عزموا عليـه ويوافقهم فى أقوالهم وزورهم (١٢٢) ٠

الثالث : تجنيد أكبر عدد من الشهود ليشهدوا ضد علاء الدين ٠

ويبدو أن مجد الملك وأعوانه قد نجحوا فى التأثير على المبعوث ، وجعله خادما لأغراضهم ، لأنه لم يكتف بالقبض على علاء الدين بل بدأوا من جديد فى تعذيبه ، يقول انهم « استأنفوا أسلوب التشـــديد والتنكيل ، وكانوا يقصدون فى هذه المرة القضاء على حياتى ، ولم يكن قد بقى لدى من المال شىء أتمكن بواسطته من تدارك أمر من الأمور » (١٢٣) ٠

والظاهر أن السلطان كان قد أمر مبعوثه بالعودة سريعا ، لكن مجد الملك وأعوانه ـ برغم علمهم بحرج موقف المبعوث ـ أبقوه فى بغداد ما يقرب من شهر على وعد الرحيل : اليوم أو غدا ، لأنهم لم يكونوا قد انتهوا بعد من تجنيد عدد كبير من الشهود ، لكنهم قاموا بحملة ضخمة فى بغداد ومضافاتها ، « وأخرجوا الأوباش وعوام الناس من كل ناحية لكى يكتبوا أحاديث الزور ، ويسجلوا شهادة المفترين ، فلما لم يجدوا من هذا الصنف مصنفا ، أحضروا رجلين أو ثلاثة من العرب ، كنا نتخذهم رسلا بيننا وبين أحد مشايخ العرب (وغيره من) الأمراء العرب ، وذلك بالاتفاق مع رؤساء شرطة المغـــول وأمرائهم ، حتى يصدقوا أكاذيب هذه الجماعة بالتخويف والترغيب » ٠

---

(١٢٣) صلة تسلية الاخوان ، أيضا ٠

المماليك والايلخانيون :

كان علاء الدين ، بحكم موقعه كحاكم لبغداد والعراق العربى ، يسيطر على التخوم الغربية للدولة الايلخانية ، ويطل من تلك التخوم على دولة شديدة العداء لدولته ، هى دولة المماليك بمصر والشام ، وكان بطبيعته ميالا لخدمة الايلخانيين ، وان كانوا كفارا ، فهو كثيرا ما يتحدث عن اخلاصه لأولياء نعمته من المغول ، وكان لذلك يتحين الفرص لخدمتهم فى علاقاتهم المتوترة مع المماليك ، ولقد صرح بأنه كان على علاقة ببعض مشايخ القبائل العربية الضاربة فى المنطقة الواقعة بين العراق والشام ، وكان حريصا على ألا يتورط فى هذه العلاقة وحده دون علم من السلطات المغولية ، ولذلك كان يطلع رؤساء الشرطة وأمراء الجيش من المغول الذين يقيمون بالمنطقة ، وكان هؤلاء الأعراب يأتون اليه بأخبار دولة المماليك أولا بأول ، فينقلها بدوره الى السلطان نفسه ٠

وكان هناك حدث هام وقع فى دولة المماليك قبل عام تقريبا من الأحداث التى تناولناها ، ففى أوائل سنة ٦٨٠ عندما توفى الملك الظاهر بيبرس البندقدار دب الخلاف بين أمراء المماليك ، وما لبث « أن انحاز الأمير سنقر الأشقر ومعه جماعة من أمراء الأتراك البحرية فى ناحية ، وانضم اليه عيسى بن مهنا (١٢٤) أمير أعراب الشام وبيروت ، فاستعد الألفى (١٢٥) ،

---

(١٢٤) « هو عيسى بن مهنا ٠٠٠ أمير آل فضل ، كان ملك العرب فى وقته والمشار اليه منهم ، وكان له منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بيبرس ، ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون بحيث ضاعف حرمته واقطاعه ، وملكه مدينة تدمر ٠٠٠ وكان به نفع للمسلمين ، منها أنه كان يكف العدو عن حلب ومعاملتها ، ومنها فى موقعة الملك المنصور قلاوون مع التتار بحمص سنة ثمانين وستمائة ، فانه جاء وقت الواقعة ، واعترض التتار من خلفهم ، فتمت هزيمة التتار به ، وكانت البلاد فى زمانه فى غاية الأمن الى أن توفى سنة ثلاث وثمانين وستماية » ٠

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى ، ج ٢ ورقة ٤٩٨ب ـ ٤٩٩ أ من نسخة دار الكتب المصرية برقم ١١١٣ تاريخ ، انظر أيضا ابن خلدون : العبر، ج ٥ ، ص ٤٣٦ وما بعدها طبع بيروت ٠

(١٢٥) يعنى بالالفى هنا الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، من كبار سلاطين المماليك البحرية . وقد عرف بالألفى لأن الأمير علاء الدين آقسنقر كان قد اشتراه فى بداية أمره بألف دينار ، وقد تولى الملك المنصور العرش فى المدة من رجب =

الذى ما زال يحكم تلك الديار الى الآن ، لمحاربته فى دمشق · وفى تلك الأثناء وصلتنا أنباء تفيد بأن جحافل الجيش المصرى قد أضطرت فوجا من الأتراك البحرية الى اللجوء الى ساحل الفرات فوصل هذا الفوج بالقرب من عانة والحديثة · وعلى سبيل الحيطة والحذر ، ولاكتشاف بواطن نياتهم ، حيث كانوا يقدمون دائما على عظائم الأمور بالمكر والخديعة ، أرسلت من قبلى رسولا ليرغب سنقر الأشقر ، والأمير عيسى فى الطاعة والانقياد لحضرة السلطان · فلما اتفق أن اقترن وصول رسولنا مع انهزامهم أمام « الألفى » بلغ بهم السرور والابتهاج غايته ، وأرسل الأمير عيسى أخاه الى بغداد فى صحبة الرسول ، فأرسلناه مع الثقاة والمعتمدين الى حضرة السلطان ، الذى بالغ فى تكريم كل من : سنقر الأشقر وأخى عيسى ، وبعث بالخلع والذهب الى بغداد · ونظرا لما بذله خادم الدولة هذا (١٢٦) من سعى واجتهاد فى هذا الصدد خصه السلطان بالتحسين والانعام كذلك » (١٢٧) ·

لا شك أن علاء الدين قد استطاع أن يقدم خدمة كبرى للدولة الايلخانية، عندما اقنع أميرا من كبار أمراء المماليك هو سنقر وأميرا آخر يسيطر على منطقة استراتيجية هامة ، هو عيسى بن مهنا ، بالانحياز الى الايلخانيين ، الذين حاولوا الافادة بوجود سنقر الأشقر بين ظهرانيهم لشن حملة جديدة للاستيلاء على الشام · وقد كافأ السلطان علاء الدين على هذه الخدمة الجليلة بالتحسين والانعام ·

علاء الدين حاكم بغداد وموقعه بين المغول والمماليك :

والواقع أن علاء الدين كان يشعر طيلة حكمه لبغداد والعراق أنه لا يمكن أن يكون حاكما مستقلا ، ولم تواته الجراة لكى يفكر — مجرد تفكير — بأن ينفصم بالعراق عن الدولة الايلخانية ، وانما ظل يعد نفسه خادما مطيعا للايلخانيين وموظفا من موظفى دولتهم · وربما عمق هذا الشعور لديه كثرة المؤامرات التى كانت تحاك ضده وتتابعها ، بهدف زحزحته عن حكم هذه

= ٦٧٨ الى ذى القعدة ٦٨٩ ، احدى عشرة سنة ونيفا ، راجع : النويرى : نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ١ — ٤٥، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ·

(١٢٦) يعنى نفسه ·

(١٢٧) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٦٦ ·

البلاد ، فكان يبالغ فى الاخلاص للسلطان ، ويخدم الدولة بكل ما يستطيع عسى أن يقتنع السلطان وولاة الأمر فى الدولة بأنه لا يمكن أن يوجد شخص أكثر ولاء ، وأحسن تدبيرا ، وأعظم لياقة من علاء الدين لكى يتولى حكم بغــــداد .

سبب آخر ، جعل علاء الدين ـ فيما يبدو ـ لا يفكر ـ مجرد تفكير ـ فى الاستقلال ببغداد مستغلا ضعف الدولة الايلخانية ، وعلو شأن دولة المماليك فى مصر والشام ، هذا السبب يرجع الى أخيه شمس الدين محمد ، الذى كان يتولى وزارة الدولة الايلخانية ، والذى كان لا بد وأن يفقد حياته، بل وتفقد أسرته كلها حياتها ، اذا أقدم أخوه علاء الدين على فعلة كهذه . لذلك ظل علاء الدين الخادم الأمين ، والتابع المطيع للايلخان ودولته .

ولعل البعض يتساءل : الم يكن بامكان علاء الدين ـ الذى يتحدث كثيرا عن غيرته على الاسلام والمسلمين ـ الانحيــاز بالعراق الى جانب المماليك المسلمين ؟ ! نستطيع الاجابة على هذا التساؤل بأن علاء الدين لم يكن فى موقف يمكنه من ذلك ، لأن كفة أى من الفــريقين ـ الايلخانيين والمماليك ـ لم تكن قد رجحت بعد ، حقيقة كان المماليك يردون الايلخانيين على أعقابهم كلما هاجموا منطقة الشام ، غير أن الايلخانيين كانوا يعاودون الكرة علهم يحققون حلما طالما داعب خيالهم ، وهو حلم السيطرة على الشام وفلسطين ، وربما مصر أيضا .

وكان علاء الدين نفسه ينظر الى الجيوش الايلخانية على أنها « عساكر منصورة كان الفضاء يبدو ضيقا من حشدهم وكثرتهم » (١٢٨) ، ولم يكن علاء الدين يستطيع أن يغامر بالانحياز الى المماليك فى وقت كانت الحــرب سجالا بينهم وبين سادته الايلخانيين .

والحق أن الايلخانيين استطاعوا لبعض الوقت ـ فى عهد السلطان محمود غازان خان ـ وبعد موقعة مجمع المروج ، سنة ٦٩٩ ، بسط سيطرتهم على الشام ، لكن كفة المماليك ما لبثت أن رجحت فى نهاية الأمر بعد موقعة مرج الصفر بالقرب من دمشق سنة ٧٠٢ ، وهى الموقعة التى هزم فيهــا

---

(١٢٨) تسلية الاخوان ، ورقة ٢٢٧ أ .

الايلخانيون هزيمة منكرة ولم يعودوا بعدها لمحاولة غزو الشام (١٢٩) ٠ غير أن هذا الرجحان لكفة المماليك لم يأت بهذه الصورة الحاسمة الا بعد وفاة علاء الدين نفسه بأكثر من عشرين سنة ٠

كان علاء الدين قد قنع بموقعه _ أو قل بوظيفته _ كحاكم لبغـــداد والعراق وكان غاية ما يتطلع اليه _ من الناحية السياسية _ هو أن يترك عن نفسه وعن عمله انطباعا طيبا لدى الايلخان ٠ ولم ير علاء الدين أن ذلك يتعارض مع مشاعره وواجبه كمسلم غيور على دينه ، طالما هو يعمل _ من خلال وظيفته _ على تعمير الديار الاسلامية التى يتولى حكمها ، وطالما هو لا يعمد الى استخدام الظلم والعسف مع الناس فى تحصيل الأموال الديوانية، بل يسد عنهم من ماله الخاص التزاماتهم قبل الديوان (١٣٠) ، وطالما هو يضرب للناس المثل تلو المثل للحاكم المسلم فى العفة والنزاهة والشرف ، وطهارة اليد واللسان ، والخلق القويم ، والبعد عن التعصب ، والتواضع النجم ، يقول عنه ابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » : كان علاء الدين وأخوه (شمس الدين) فيهما كرم وسؤدد وخبرة بالأمور وعدل ورفقة بالرعية وعمارة البلاد ٠٠٠ وكان الفاضل اذا عمل كتابا ونسبه اليهما يكون جائزته ألف دينار ، وكان لهما احسان الى العلماء والفضلاء ، ولهما نظر فى العلوم الأدبية والعقلية ٠٠ الخ » (١٣١) ٠

كان لعلاء الدين طبيعته الخاصة ، وهى طبيعة لم تكن تميل ٠ كما هو واضح ، الى ايثار الغلبة والنزاع أو التطاول والعدوان ، وانما كان يميل بطبعه الى أن يبقى فى الصف الثانى وراء السلطان والقوة الحاكمة الغالبة لكبار أمراء المغول ٠ كان هذا طبعه ، وكان هذا هو مفهومه لكيفية حكم بغداد والعراق العربى فى ظل دولة المغول الايلخانيين ٠

---

(١٢٩) انظر عباس اقبال : تاريخ مغول ، ص ٢٢٥ ٠

(١٣٠) راجع فيما سبق ، ص ٣٣ ٠

(١٣١) ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٤ ٠

٧ ـ صراع الحق والباطل

ومهما يكن من أمر فان « مجد الملك » وأعوانه حاولوا أن يلبسوا الحق لباس الباطل ، وأن يجعلوا من هذه الخدمة الجليلة التى أسداها علاء الدين للدولة الايلخانية خيانة عظمى : « فأستدعوا الرسل الذين كنا نرسلهم ـ بعلم من رؤساء الشرطة وضباط الجيش ـ الى جماعة المماليك هؤلاء بل أحضروا التلاميذ والركابيين ، وبذلوا جهدهم لحملهم على مجـــاراتهم · فانعكست القضية وشهدوا جميعا ضد هذه الأحوال ، بل ان أغلبهم خدع جمـــاعة الأعداء فى بداية الأمر ، وأخذوا منهم الكثير من الدراهم والدنانير ، وخرجوا فى النهاية من المأزق بأيسر السبل » (١٣٢) ·

يواصل علاء الدين حديثه قائلا : « ولما هل هلال ذى الحجة انصرفنا فى عقب نواب الايلخان المصاحبين للمبعوثين المذكورين متوجهين الى الحضرة العالية » (١٣٣) فلقد سار هذا الركب متوجها الى بلاط السلطان « آباقا » فى همدان ، فى أقصى الشرق من ايران ، واستمر الركب يواصل سيره حتى اذا ما حل يوم الأربعاء الموافق العشرين من ذى الحجة سنة ثمانين وستمائة (٦٨٠) ، وبعد أن اجتزنا « ممر أسد اباد » ، وصل جمـــاعة من خواص الحضرة السلطانية ،

وقرروا أن حضرة الايلخان ـ بعد أن وقف على تزوير الحساد بمقتضى عرض الحال الذى قام به الخواص فى وقت الخلوة ـ أصدر مساء أمس أمرا ملتبسا بالعطف والرحمـــة يقضى بفك قيود جفاء الزمان ، وباجزال العطاء » (١٣٤) ·

وهكذا خرج الجوينى من هذا المأزق ، اذ لم يشهد ضده أحد ، وكانت القضية برمتها تشير بوضوح الى الخدمات الجليلة التى يقدمها للدولة ، فكانت شاهدة له لا عليه · ولكننا ـ برغم هذا الحق الأبلج ـ نشتم رائحة المحاولات التى اعتاد الوزير شمس الدين الجوينى على القيام بها وسط كبار

---

(١٣٢) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٦ ب · وهنا يبدأ علاء الدين بعرض مناظرة طويلة جدا تستغرق احدى وعشرين ورقة ، حتى ورقة ٢٧ أ بين كل من القلب والعقل والصبر ، ولا تشتمل هذه المناظرة على أية اشارات تاريخية ، ومن ثم فهى خارجة عما نحن فيه · وهو بعد انتهاء المناظرة المذكورة يعود لاستئناف حديثه عن سيرته الذاتية فى تلك الفترة من جديد ·

(١٣٣) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٧ ب ·

الأمراء والأميرات لاقناعهم بالتدخل لدى السلطان ، وانتهاز الفرصة المواتية لعرض الظلم الفادح الواقع على علاء الدين الجـــوينى · ويبدو أن هذه المحاولات قد نجحت فى النهاية ، فلم ينتظر السلطان حتى يقدم علاء الدين الى همدان ، بل بادر باصدار قرار بالعفو عنه واجزال العطاء له ، قبل أن يصل الى همدان بيوم واحد ·

« وقبل الوصول الى سور همدان رأينا الرسل يهرولون الى كل صوب ، ولا علم لأحد بحقيقة الأمر ، حتى وصلنا الى همدان ، فكانت الطامة الكبرى قد وقعت » (١٣٥) ، وتوفى السلطان فى نفس اليوم الذى أبلغ الرسل فيه علاء الدين بأمر الافراج ، أى يوم الأربعاء ٢٠ ذى الحجة سنة ٦٨٠ (١٣٦) · وكان وقع هذا الخبر على علاء الدين شديدا جدا ، فقد تسير الأحداث فى اتجاه مغاير لصالحه وصالح أخيه الوزير شمس الدين ، لا سيما اذا تولى العرش الأمير أرغون بن آباقا · الذى كان شديد العداء للجوينيين ، وكان من كبار مناصرى مجد الملك (١٣٧) ·

تيارات عاصفة فى الدولة الايلخانية :

عندما وصل علاء الدين الى همدان رأى الناس حيارى « كقطيع من النعاج ضل فى البيداء · وقد سار جمـــاعة الأمراء فى صحبة الخواتين (الأميرات) وابناء الملوك بعد يومين من حدوث الواقعة ، ليجتمعوا فى وقت واحد فى « مراغة » · وقد اتجه تفكير بعض الأمراء ، بتحريض جمـــاعة الوشاة ، اتجاها آخر ، فقالوا : ان تخلية سبيل فلان فى هذه الظروف أمر بعيد عن الحيطة والحزم ، ولذا رجع هؤلاء الأمراء من الطريق الى همدان ، وحالوا بينى وبين التوجه فى الصحبة الى البلاط السلطانى (بمراغة) · فبقيت فى ذلك المقام وحيدا ترافقنى الغربة » (١٣٨) ·

---

(١٣٤) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٧٨ ب ·

(١٣٥) صلة تسلية الاخوان ، أيضا ·

(١٣٦) انظر : عباس اقبال : تاريخ مغول ، ص ٢٢٠ ·

(١٣٧) راجع فيما سبق ص ٢٤ وما بعدها ·

(١٣٨) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٢٩ أ ·

ولا شك أن علاء الدين كان على علم بالتيارات العاصفة التى كان من شأنها أن تجتاح الاجتماع العام (القوريلتاى) الذى سيعقده المغول لاختيار سلطان جديد ، يخلف اباقا · فلقد كان آباقا يرغب ـ فى أواسط عهده فى أن يتولى عرش الايلخانيين بعده ابنه « أرغون » ، غير أن هذا التدبير كان يتعارض مع قانون « الياسا » الذى وضعه جنكيز خان ، والذى كان يقضى بأن يتولى السلطة أكبر الأمراء الملكيين الأحياء فلم يستطع آباقا أن ينصب أرغون وليا للعهد ·

وفى أواخر عهد آباقا ظهر بين أمراء المغول تيار قوى يدعو أن يخلف أرغون أباه ، فلما مات آباقا كان من المتوقع أن ينعكس هذا الخـــلاف فى الاجتماع العام (القوريلتاى) الذى سيعقد فى « مراغة » · وبعد عنـــاء شديد توصل « القوريلتاى » الى رأى بالرضوخ لحكم « الياسا » ، فتم بذلك اختيار أكبر الأمراء الملكيين وهو « تكودار » ليتولى العرش ، وكان ذلك فى ٢٦ محرم سنة ٦٨١ ، فسمى تكودار نفســـــه باسم « السلطان أحمد خان » (١٣٩) وعرف باسم « أحمد تكودار » · وبذلك أقصى الأمير « أرغون » عن العرش ، فتحول التنافس بينه وبين السلطان أحمد الى عداء سافر ، وما لبث أن انقسم أمراء المغول وقادتهم على أنفسهم الى معسكرين : معسكر يناصر تكودار ، ومعسكر آخر يناصر أرغون (١٤٠) ، وكان لذلك أثر بعيد فى سير الأحداث فى دولة المغول الايلخانيين فيما بعد ·

السلطان احمد تكودار وموقفه من الجوينيين :

كان أحمد تكودار هو الابن السابع لهولاكو ، ولم يكن قد صحب أباه هولاكو فى حملته على ايران والعراق ، فلقد كان ما زال صغيرا · وفى فترة طفولته عمد كما يعمد النصارى ، ثم لما أنشـــــأ أبوه هولاكو دولة الايلخانيين فى ايران جاء تكودار الى تلك البلاد وأقام فيهـــــا ، واختلط بالمسلمين فاعجب بالدين الحنيف ، وما لبث أن اعتنقه فى نهاية الأمر ، وسمى باسم أحمد (١٤١) ·

---

(١٣٩) انظر عباس اقبال ، تاريخ مغول ، ص ٢٢١ ·

(١٤٠) أيضـــــا ·

(١٤١) انظر تاريخ وصاف ، طبع بمباى ١٠٥ ، والنويرى : نهاية الأرب ، ج٢٥ · ورقة ١٢٨ ـ ١٢٩ ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ·

كان علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم بغداد والعراق ، قد بقى معتقلا فى « همدان » نحو شهر ونيف ، حيث ظل خائفا يترقب صـــدور قرار « القوريلتاى » ، ولقد كان أشد ما يخشاه علاء الدين أن يتولى « أرغون » العرش فان ذلك يعنى التنكيل به وبالجوينيين جميعا ، بل وبسائر المسلمين فى شتى أرجاء الدولة الايلخانية ، اذ عرف أرغون بعدائه الشـــديد للاسلام والمسلمين (١٤٢) ٠ لكن الله ـ عز وجل ـ استجاب لدعائه وربما لدعاء كافة المسلمين فى البلاد ، فتولى السلطان أحمد العرش ٠

ويقول علاء الدين : « ولما أمسك الأعزة والاخوة فى الدين ـ ولو أننى قلت أكثر فرقة الاسلاميين فى الأقطار لبدا ذلك مبالغة منى ـ بحلقة الدعاء والتضرع بيد « ادعونى » ، وأصاخوا السمع لانجاز الوعد بمقتضى قوله تعالى « أستجبْ لكم » لم تلبث أن ضربت « فتحت أبوابها » فانتشر رنينهـــا فى سائر أرجاء العالم ، وأقبل الرسل المبشرون ببشرى جلوس سلطان سلاطين العالم خان بن خان بنى آدم السلطان أحمد ، وأحضروا معهم أمر خلاص هذا العبد (يعنى نفسه) » (١٤٣) ٠

وأعجب ما فى الأمر أن الايلخان ـ فى هذه المرة ـ أصدر أمره بالافراج عن علاء الدين من تلقاء نفسه ، دون حاجة الى شكاية أو وصاية ، فلقد كان مقتنعا ببراءته ، لكن يبدو أن كلمته لم تكن مؤثرة على أخيه آباقا ، فتجنب ـ فى حياة آباقا ـ التدخل فى الأمر ، غير أنه الآن ـ بعد أن تولى العرش ـ أطلق سراح علاء الدين عن قناعة خاصة من جانبه ٠

يقول علاء الدين : « والحقيقة أن القضية برمتها كانت قد تناهت الى سمعه المبارك منذ مدة طويلة ، فمجها ولم يسغها ، ولم يكد كرسى العرش يزدان بمقامه السامى حتى تفقد ـ كما تفقد سليمان الهدهد ـ حال هذا العبد المقيد بقيود عناء الليالى ، والمريض بسهام الفلك الحجود ، وسير الرسل لاحضارى دون حاجة منه الى عرض حال وتذكير ، أو الى توسل بتدبير

---

(١٤٢) تولى أرغون عرش الدولة الايلخانية سنة ٦٨٣ ، أى بعد وفاة علاء الدين بنحو عامين ، فقتل الوزير شمس الدين الجوينى ، وعين مكانه وزيرا يهوديا يسمى « سعد الدولة » ، فسام المسلمين سوء العذاب ٠

(١٤٣) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٣٠ أ ٠

فوصلوا على الفور من حدود مراغة الى همدان وأزاحوا عنى القيـــود الروحانية والجسمانية ٠

« وفى يوم السبت الخامس من صفر سنة احدى وثمـــانين وستمائة سرنا فى صحبتهم الى حضرة السلطان ، وفى اليوم الخامس لارتحالنا لحقنا بالجيش الأشرف (١٤٤) فى أرمينية ، ومن ثم توجهنا الى « الطاق » (١٤٥) لخدمة البلاط السامى ٠ وقد انعقد بها اجتماع عام « قوريلتاى » عظيم اجتمع فيه ملوك الأقطار ، وأبناء الملوك ، والأمراء من جميع النواحى ، واشتغلوا بالفرح والسرور تسعة أيام بلياليها » (١٤٦) ٠

وكان لا بد للسلطان من أن يصدر قراراته بتعيين كبار المسئولين فى الدولة « فشرع بعد الانتهاء من الاحتفالات فى تدبير الأمور العظام ، وعين الأمراء فى مختلف نواحى البلاد ، كما عين الولاة والعمال فى كل قطر من الأقطار ٠ ولـــا كان أخى (يعنى الوزير شمس الدين الجوينى) أطال الله بقاءه ، يمتاز على أقرانه بمزية التمتع بالعطف السلطانى ، فقد خصـــه وحده دون غيره بالبلاد التى كانت تحت تصرفه ، مثل خراسان ، ومازندران، والعراق ، وأران ، وأذربايجان » ٠

وهكذا أقصى مجد الملك عن مشاركة صاحب الديوان شمس الدين محمد فى حكم البلاد التى اختص بها فى عهد آباقا (١٤٧) ، وأضاف السلطان أحمد للوزير شمس الدين بلاد الروم ، المعروفة حاليا بآسيا الصغرى التى كان يحكمها حينذاك سلاطين سلاجقة الروم ، فاشترك شمس الدين معهم فى حكمها بأمر أحمد تكودار ٠ أما ديار بكر والموصل واربل ، وهى منـــاطق مجاورة للعراق حسب التقسيم الادارى للايلخانيين المغول ، فقد صدر أمر الايلخان بأن يحكمها هارون بن شمس الدين الوزير ٠ فماذا عن بغـــداد والعراق العربى اذن ؟ يقول علاء الدين :

---

(١٤٤) يبدو أن هذا الجيش كان عبارة عن فرقة خاصة للسلطان احمد تكودار ٠

(١٤٥) منطقة تقع فى شمال آذربايجان وجنوب القوقاز ٠

(١٤٦) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٣٢ ب ٠

(١٤٧) انظر فيما سبق ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

« كان أمر بغداد ، طبقا لما تواترت به الأخبار ، قد فسد بعد أن كان منظما ، ولحق الخراب بالأعمال ، فكان الايلخان ـ دون أن يتقدم اليه أحد منا ـ أنا وأخي ـ بأي التماس ، ودون أن يذكره أحد من أركان الدولة ـ يقول منذ أن جلس على العرش ، حتى خلال أيام الاحتفالات وجلوسه المبارك: ان معاملة تلك الجهة مهملة ، فينبغي اعادة خادمنا فلان (يعني علاء الدين) على الفور ليتدارك الأحوال ·

ولقد بذل السلطان في هذا الأمر أيضا تعطفا بالغا ، وفوض الى تلك المصالح وأشار بتوجهي عاجلا ، وشرفني بأنواع الخلع من (الجتر) المظلة والسلاح الخاص وغير ذلك » (١٤٨) ·

المرأة ودورها في ابطال سعايات الأعداء :

ولئن كان علاء الدين حريصا على التأكيد بأن هذا الانعام والتكريم الذي شمله ـ وأخاه شمس الدين والجوينيين جميعا ـ انما جاء بدافع ذاتي من السلطان نفسه دون تدخل من أحد ، فان صاحب كتاب « جامع التـــواريخ » يذكر قصة أخرى ، يقول ان الاشراف على الممالك كاد أن يحول الى مجد الملك ثانية ، لولا أن لجأ شمس الدين الى « أرمني خاتون » (زوجة السلطان أحمد) فتم اقراره على القاعدة السابقة بفضل رعايتها » (١٤٩) ·

ومرة أخرى تتدخل احدى الأميرات ، وهي دائما زوجة أثيرة من زوجات السلطان لصالح الجوينيين ، ويبدو أن الوزير شمس الدين الجـــويني كان يدخر نفوذه لدى هؤلاء الأميرات حتى يحين الوقت المناسب لتدخلهن ، فيطلب اليهن التدخل ، فلقد كان نفوذ شمس الدين لدى هؤلاء الأميرات ـ فيما

---

(١٤٨) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٣٤ ب ـ ١٣٥ ،ويبدو أن نفس التقليد كان متبعا في دولة المماليك ، ولعل المماليك أخذوه عن المغول ، راجع القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، طبع مصر ١٩٢٠ م ، ٢ : ١٣٣ ، ٣ : ٤٦٩ ، ٤ : ٢٧ ، وأماكن اخرى متفرقة وهو يستخدم لفظ « الجتر » بمعنى المظلة ·

(١٤٩) جامع التواريخ ، نسخة المكتبة الاهلية بباريس Suppl. Pers. 209 ورقة ٣١٦ ب نقلا عن القزويني ، في مقدمة جهانكشاي ، ص ! ند ، وانظر الترجمة العربية لجامع التواريخ ، م ٢ ج ٢ ص ٩٤ ·

يبدو ـ هو السهم الأخير فى جعبته • وكان اذا أعيته الحيلة طلب اليهن التدخل فى وقت الخلوة بالسلطان ، وهنا يحدث التأثير العجيب ، وتصدر لصالح الجوينيين القرارات متجاوزة كل المقاييس ، ضاربة عرض الحائط بكل التحقيقات التى تمت والمعلومات التى جمعت والسعايات والوشايات التى بذلت ضد هؤلاء الجوينيين •

ولقد رأينا كيف تدخلت فى محنة علاء الدين الأولى « أولجاى خاتون » زوجة آباقا المفضلة وصاحبة الكلمة المسموعة لديه ، وفى المحنة الثانية تدخلت زوجة أخرى لآباقا وهى « بولوغون خاتون » ، وكانت من أحب نسائه اليه ، فأنقذت كل واحدة منهما علاء الدين ـ وربما أسره الجوينيين بأسرها ـ من المصير المحتوم فى اللحظة الأخيرة • والآن ، ها هو ذا شمس الدين الجوينى نفسه يطلب الى الأميرة « أرمنى خاتون » زوجة السلطان أحمد تكودار أن تتدخل لكى يعينه السلطان وزيرا مستقلا ، ولقد عين بالفعل بفضل رعايتها ، ولم يكن هذا بالأمر الغريب •

٨ ـ الجوينيون يحاولون التخلص من مجد الملك

وبادر شمس الدين الى اغتنام هذه الفرصة المواتية ، فحرض جماعة بدأوا يغمزون مجد الملك وينقلون عنه صدقا وكذبا ، وفى تلك الأثناء أرسل مجد الملك رسالة الى الأمير أرغون (قال فيها) : اننى غلامك وخادمك، وقد سقى صاحب الديوان أباك (السلطان آباقا) سما فقتله ، وهو يريد قتلى لأنه يعرف بأنى على علم بهذا الأمر ، فلو وقع لى حادث فليعلم الأمير أن هذا هو السبب » (١٥١) •

وكان لمجد الملك ابن أخ يسمى سعد الدين ، قد علم بأمر هذه الرسالة، وكان مجد الملك قد عزله فى ذلك الوقت من عمله كخازن خاص له بسبب ظهور خيانته ، الأمر الذى أضر به اضرارا بالغا ، فأفلس « وهام على وجهه الى أن وقع عليه جماعة من أصحاب الصاحب (شمس الدين) فحملوه اليه، فوعده بوظيفة مستوفى العراق ، وفى الحال أخذ يتلطف معه ويتودد اليه ،

---

(١٥٠) راجع فيما سبق ، ص ٢٦ ، ص ٤٢ •

(١٥١) جامع التواريخ ، أيضا •

حتى وقع سـعد الدين وقرر أن مجد الملك والأمير أرغون على قلب رجل واحد ، وأنه أرسل الى أرغون رسولا ٠٠ فصدر الأمر بأن يتولى الأميران سونجاق واروق مساءلة مجد الملك ومحاكمته » (١٥٢) ٠

نهاية مجد الملك :

كانت هذه هى بداية النهاية لمجد الملك ، فلا شك أن السلطان أحمد كان يشعر بعداء شديد للامير ارغون الذى بدأ يجمع الأنصار من أمراء المغول وقادتهم ، ويعد العدة للاطاحة بالسلطان أحمد لأنه ظن أنه استلبه ملكا ٠ ولاشك أيضا أن وقع هذا الخبر ـ خبر تعاون وزيره مجد الملك مع ارغون ـ كان مؤثرا علي السلطان ، الذى أمر باجراء تحقيق فورى ٠

وما لبث نطاق التحقيق أن اتسع ليشمل النظر فى مكائد مجد الملك ضد الجوينيين ٠

ففى هذه الأثناء عرض على السلطان حديث اتلاف المال الذى كان مجد الملك وأعوانه قد استولوا عليه من علاء الدين ، عندما جردوه من كل ما يملك حتى الأثاث ومتاع البيت (١٥٣) ، وقد تصرف (مجد الملك) فيه ولم يرسله الى الخزانة ، فصدر أمر سلطانى برد الأموال على الفور ، وأمر بأن يتولى الأميران الكبيران (يعنى سونجاق وأروق) التحقيق فى شأنها ،فأشارا بحبس أولئك الأشقياء ، وختما على أمتعتهم وسائر ما يملكون ، ثم شرعا فى البحث والتفتيش ٠ وبعد مرور يومين أو ثلاثة نصبا خيمة نقلا اليها الأمتعة المنهوبة من الجواهر والثياب والأوانى الذهبية والفضية ٠ فلما سأل الأميران عن مصدرها ـ فى حضور الايلخان ـ لم يقو لسان ذلك الشقى (يعنى مجد الملك) على حركة الجواب ، ولم يتمكن من الانكار ٠ فلما صار اعتراف الخصم شاهدا على حقيقة الأمر ، تفضل الايلخـان فأشار برد الأمتعـة الينـا » (١٥٤) ٠

---

(١٥٢) أيضـا ٠

(١٥٣) راجع فيما سبق ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(١٥٤) صلة تسلية الاخوان ورقة ٣٧ أ ٠

وهنا تبدو حنكة علاء الدين وخبرته الطويلة فى معاملة المغول ، فهذه بضاعته قد عثر عليها أخيرا ، بعد أن نهبها مجد الملك وأعوانه ، ولم يسلموها إلى الخزانة ، وقد ردت البضاعة اليه بأمر من السلطان ٠ لكن علاء الدين قال للسلطان : « ان كل ما حصلنا عليه من البداية الى النهاية انما كان من المبار والصدقات الايلخانية ، وما حدث الآن انما هو من يمن هذه الدولة التى تزداد عظمة يوما بعد يوم ٠ ألا يمكن اذن أن يصدر السلطان أمرا بتوزيعها فى هذا المجلس الكبير (القوريلتاى) ؟ ! فلتأمروا الخزان بتوزيع هذا القدر من الأمتعة ، وان كان قبيحا وحقيرا ، على الخدم والعبيد الآخرين (١٥٥) فأشار السلطان بنهبها كلها ٠

« فلما فرغ الأمراء من هذا الأمر ، وجدوا بين الأمتعة فى جيب حزامه أدراجا للتعاويذ والقى ، بعضها مكتوب على الورق بحبر ذهبى وأحمر ، والبعض الآخر مكتوب على جلد جبهة أسد باللغة العبرية وغيرها ٠ وهذا التصرف عند المغول فى غاية الشناعة والقبح ، وما أكثر من هلك من الناس بسبب اقتراف مثل تلك الأمور فأخذ الأمراء فى تحرى ذلك الأمر ، فلما ضاق عليه (يعنى مجد الملك) مجال الاعتذار ، أشار « البخش » (١٥٦) وعبدة الأصنام والعارفون بالسحر بأن تغمس كل تعويذة ورقية تم العثور عليها فى الماء ، ثم تعصر حتى يشرب عصارتها فيلحق به شر السحر ، فامتنع عن شربها ، فكان امتناعه هذا دواء ناجعا لدفع شره ، وكان القدر موافقا ومواتيا بدون تدخل من جانبنا ، نحن معشر خصومه ٠ ولذا أيقن المغول أن ذلك كان سحرا ، فلما حق عليه قول السحر ، صدر الأمر بتسليمه الى خصومه كى ينفذوا فيه حكم الياسا » (١٥٧) ٠

وهكذا سلم مجد الملك الى علاء الدين وأخيه شمس الدين لقتله بأمر من الايلخان ٠

---

(١٥٥) صلة تسلية الاخوان ، ق ٣٧ أ ٠

(١٥٦) بخش : كلمة مغولية ، معناها الكاهن والرئيس الدينى لعبدة الأصنام من اتباع بوذا ٠ راجع الحاشية المفصلة التى كتبها كاترمر فى الجزء الذى نشره من « جامع التواريخ » ص ١٨٤ ـ ١٩٩ ٠ وانظر أيضا القزوينى ، مقدمة تاريخ جهانكشاى، ص : نو ٠

(١٥٧) صلة تسلية الاخوان ، ٣٧ ب ٠

« وما لبث خبر تسليمه أن انتشر بسرعة البرق بين الجند ، فوصلت أفواج المغول — كبارا وصغارا ، كما وصل أقوام آخرون تباعا قادمين من أماكن تبعد عدة فراسخ ، فأخذوا يصلون فوجا فوجا — كما يرد العطشان على الماء ، والسقيم على الشفاء — ليشربوا من دمه ، ويضربوه بكل سيف ويحرقوه فى النار » (١٥٨) ٠

ويبدو أن حكم « الياسا » كان يقضى بأن يعهد الى خصوم المذنب باتخاذ قرار نهائى بشأنه ، فاما أن يقتلوه أو يصفحوا عنه ، ومن ثم بدأت فكرة الصفح والتجاوز تراود علاء الدين ، يقول :

« ونظرا لمقابلة السوء بالاحسان والكرم ، التى كانت غالبة على الطبيعة بصفة دائمة ، كان رأيى قد استقر على أن أقابل جرمه بالتجاوز ، فقالت النفس الأمارة للقلب : معلوم أن كافة الخلق فى هذه البلاد مطلعون على وجود هذا الشر الذى هو أصل الفساد والضرر ، فليس من اللائق أن تمعن فى التفكير بأمره ، واستمع الى الأصدقاء الشفوقين ، ولا تدع الفرصة تفلت من يدك ، ولا تنخدع بتذلله وعجزه ، فهو نفسه الذى دفع بك فيما مضى الى الماء المغرق ليهلكك ، ولقد رحمتماه أنت وأخوك لما يبديه من عجز وجزع ٠ وعملتما على انقاذه ٠ واليوم ، وقد مضى على ذلك ما يربو على العشرين سنة ، منذ أن كان مشمولا بانعامكما وشفقتكما ، ولم ير منكما أى أذى ، حتى الشوكة لم يشاكها ، كان جزاء صنيعكما معه ما ترى ، ولقد فعل ما فعل ، فما الذى يمكن أن يصدر عنه الا الفساد : من جرب المجرب حلت به الندامة (١٥٩) ٠

« ولقد ظلت نفسى تحادث قلبى فترة طويلة على هذا المنوال ، وقد غضب العظماء العطوفون (١٦٠) فتجنبونى وأشاحوا بوجههم عنى لكثرة تكرار أمثال هذه النصائح ، التى لم يكن لها أدنى تأثير فى قلبى ، كما أطلق الغرباء أيضا سهام العتاب واللوم ٠

---

(١٥٨) أيضــا ٠

(١٥٩) صلة تسلية الاخوان ورقة ٣٨ أ ٠

(١٦٠) لعل أخاه شمس الدين محمد كان واحدا منهم ٠

« وكان أغلب المغول ومختلف الطوائف تترقب بفارغ الصبر اللحظة التى تشفى فيها غليلها من دمه ، بل اضطرب اخوته واقاربه لما يحدث من تراخ ، وأخذوا يقولون : « فى التأخير آفات » (١٦١) ٠

« ولكن القلب بقى مترددا ، والطبيعة الأصلية تميل الى العفو والصفح عنه ، فى الوقت الذى أخذت ألسنة الخلق تنادى بالتعجيل بدفع شره » (١٦٢)٠

ويبدو أن هذا التردد الذى سيطر على علاء الدين استمر من الصباح حتى منتصف الليل ، يقول : « وفى نهاية الأمر ، عندما تجاوز الليل نصفه ، وكان المتأهبون للغزو يتعجلون ، وأصحاب العزاء ـ يعنى اقاربه ـ أكثر منهم تعجلا ، أرسلوا اثنين أو ثلاثة من المغول الى الخيمة ليقولوا : لقد صدر الحكم والأمر بأن تحافظ على هذا الرجل الليلة ، ولا تمسه بسوء ، حتى تعاد مساءلته غدا ٠ ولما لم يكن قد قدر لى من قبل أن أتعرف على هؤلاء المغول ، فقد صدق جميع الحاضرين هذا الكلام ، وعندئذ فتحوا باب التوبيخ والخصومة معى ٠ والحقيقة أن حديثهم اثر فى قلبى ، فانتابنى الندم على ما فرط منى من تأخر وابطاء ، فأصبح القلب هدفا لسهام الملام » (١٦٣) ٠

ولقد كان ما فعله هؤلاء المغول حيلة خدعوا بهـا علاء الدين لكى يتمكنوا من اخراج مجد الملك من الخيمة ، ويشـفوا فيه غليلهم ، بسبب ما ظهر من اعتماده على السحر ، : « فلما أخرجوه ارتفع صياح المغـول وتكبير المسلمين فجأة ، فبادر كل واحد من الحاضرين ـ سواء كان راكبا أم راجلا ـ بطعنه وضربه ، وجرح عدد من الناس من جراء التسابق على الفتك به ٠ وكما يحدث فى عيد الأضحى عندما يتنازعون على رأس الأضحية ، اشتد التنازع بينهم على رأسه ، ولبثت مختلف الطوائف التى كانت قد تجمعت فى ذلك المساء يهللون ويصيحون حتى الصباح ، ثم أخذوا يضعون أعضاءه وعروقه على النار المشتعلة ويشوونها ثم يأكلونها » (١٦٤) ٠

---

(١٦١) صلة تسلية الاخوان ورقة ٣٨ ب ٠

(١٦٢) أيضا تسلية الاخوان ورقة ٣٩ أ ٠

(١٦٣) أيضـا ٠

(١٦٤) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٣٩ أ ٠ ولم يكن هذا التصرف غريبا على المغول فقد مر بنا أنهم فعلوا نفس الشىء مع معين الدين بروانه حاكم بلاد الروم ٠ راجع فيما سبق ، ص ٢٤ ٠

ولم يكتف المغول بذلك ، بل عمدوا بعد ذلك الى تمزيق « جثته عضوا عضوا ، وأرسلوا الى كل بلد من البلدان عضوا من أعضائه ، فأرسلوا رأسه الى بغداد (١٦٥) ، واشترى رجل لسانه بمائة دينار من قائد الحرس ، وحمل اللسان الى تبريز • وبهذه المناسبة قال أحد المعاصرين هذين البيتين (بالفارسية ، وترجمتهما) :

ـ لقد قمت يوما بتزوير سجلين أو ثلاثة ، طالبا بذلك المال والملك والتدبير •

ـ والآن قد أخذ كل اقليم عضوا من أعضائك ، وبذلك ملكت الدنيا فى أسبوع واحد •

ولقد هلك فى منطقة « الاطاق » (١٦٦) ورؤى ارسال أعوانه من النصارى وغيرهم ـ بعد أن تم احتجازهم عدة أيام ـ الى بغداد • فلما دخلوا بغداد رجمهم الأنصار والمهاجرون (١٦٧) فى بغداد ، فأتوا عليهم عن آخرهم : رميا بالجملة وطعنا بالخناجر ، وضربا بالسيوف • ثم جمعوهم فى «سوق الخشب» وأشعلوا نارا وأحرقوا جثثهم » (١٦٨) •

هذه هى نهاية العدو اللدود ، والخصم المبين لعلاء الدين ، هو مجد الملك اليزدى ، ونهاية أعوانه وهى فى نفس الوقت نهاية الرسالة الثانية التى كتبها علاء الدين بنفسه ، والتى أطلقنا نحن عليها اسم « صلة تسلية الأخوان » (١٦٩) • وهذه الصلة تنتهى بمقتل مجد الملك الذى وقع فى ليلة الأربعاء الثامن من جمادى الأولى سنة ٦٨١ (١٧٠) • ولما كانت وفاة علاء

---

(١٦٥) « كما أرسلوا يده الى العراق (العجمى) وقدمه الى فارس » (تاريخ الوصاف ، طبع بومباى ، ص ١٠٩) •

(١٦٦) راجع فيما سبق ، حاشية ١٤٥ •

(١٦٧) لعله يعنى بالأنصار ، أهل بغداد الأصليين الذين بقوا فيها بعد فتح المغول لها ، كما يعنى بالمهاجرين ، أولئك الذين هاجروا اليها ، وأقاموا فيها بعد أن تحسنت أحوالها الاقتصادية والحضارية ، انظر فيما سبق ص ١٥ •

(١٦٨) صلة تسلية الاخوان ، ورقة ٤٠ أ •

(١٦٩) راجع فيما سبق ، ص ٤٣ ـ ٤٤ •

(١٧٠) أنظر ، جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، م ٢ جـ٢ ص ٩٦ •

الدين فى رابع ذى الحجة من نفس العام فان علاء الدين يكون اذن قد ألف هذه الرسالة ـ قبل وفاته بما يقرب من ستة أشهر (١٧١) ، وربمـــا اقل من ذلك ٠

وقبل أن يصل علاء الدين الى بغداد ، أرسل اليها رســـالة ـ باللغة العربية ـ وقرئت الرسالة على الناس فى جامع الخليفة ، وفى مستهلها نوه علاء الدين بوفاء أهل بغداد ، وأعرب عن فرحه واغتباطه بما أنعم الله عليه من انتصار على عدوه ، ثم ندد بسيرة مجد الملك ، وبالغ فى الحفاوة بالعهد الجديد الذى بدأ بنصب أحمد تكودار سلطانا (١٧٢) ٠

وفاة علاء الدين :

تفاقم الخلاف والنزاع على العرش بعد جلوس السلطان أحمد تكودار فقد زعم ابن أخيه أرغون بن آباقا أنه أحق بالملك منه ، وأخذ يجمع الأنصار حوله ، كما سبق أن ذكرنا (١٧٣) ٠

وكان من الطبيعى أن يشعر أرغون بالعداء الشديد تجاه الجوينيين ولا سيما الوزير شمس الدين وأخيه عـــلاء الدين ، لأنهما كانا من أخص خواص السلطان أحمد ، وكانا يقومان بتدبير الأمور بمهـــــارة بالغة فى مملكته ٠

ويبدو أن السلطان أحمد حرص على ابقاء علاء الدين الجوينى الى جانبه أيضا ، مع أخيه الوزير شمس الدين للاستعانة بهما فى تسيير الأمور بالبلاد ٠ فبعد أن تم اختيار علاء الدين لحكم بغداد والعراق العربى فى صفر سنة ٦٨١ كان يتعين عليه الاتجاه على الفور الى بغداد لاصلاح ما ألم بها من

---

(١٧١) أنظر : القزوينى ، مقدمة جهانكشاى ، ص : نح ٠

(١٧٢) راجع هذه الرسالة فى : الحوادث الجامعة ، المنســوب لابن الفوطى ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ ، ولم يعرف القزوينى شيئا عن هذه الرسالة ، ولذلك لم يضعها ضمن مؤلفات علاء الدين وآثاره ، ولا غرو ، فهذه الرسالة لم تنشر الا فى سنة ١٩٣٢ فى بغداد ، أى بعد أن نشر القزوينى مقدمته بعشرين سنة ، انظر مقدمة القزوينى لكتاب تاريخ جهانكشاى ، جا ص : عن وما بعدها ٠

(١٧٣) راجع فيما سبق ٠

خلل فى غيبته (١٧٤) ٠ لكن علاء الدين بقى بجوار السلطان ، ولم يعد بعد ذلك الى بغداد على الاطلاق (١٧٥) ، اذ توفى بعيدا عنها فى آخر السنة المذكورة ٦٨١ ، كما سنرى ٠

ومن ثم تغير قلب أرغون على علاء الدين وأخيه شمس الدين تغيرا شديدا ٠ وقد انضاف الى ذلك ما تردد بين الناس فى ذلك الوقت من أن شمس الدين هو السبب فى موت أباقا ، لأنه قدم له السم (١٧٦) ٠ وقد صادفت هذه الشائعة قبولا لدى أرغون الذى عزم على الانتقام من الجوينيين ٠

كانت بغداد والمنطقة المجاورة لها تعد مشتاة لسلاطين المغول وأمرائهم، يأتون اليها لكى يقضوا الشتاء بين ربوعها ٠ وفى أواخر سنة ٦٨١ توجه الأمير أرغون الى بغداد معتزما قضاء الشتاء بها ٠ فلما وصل بغداد قال : أريد الأموال التى احتجنها علاء الدين فى عهد والدى ، وأخذ أصحاب علاء الدين وبدأ فى معاقبتهم ومطالبتهم ، وأمر بنبش قبر « نجم الدين الأصغر » (١٧٧) الذى كان نائب علاء الدين ومعاونه ، ولم يكن قد مضى على وفاته وقت طويل ، ثم ألقيت جثته فى الطريق ٠ فلما وصل ذلك الخبر الى علاء الدين تغير ، وتألم ألما شديدا ٠ فأصابه صداع مفاجىء ، وتوفى بهذه العلة (١٧٨) فى رابع ذى الحجة سنة ٦٨١ (١٧٩) فى مغان (١٨٠) ٠ فحمل

---

(١٧٤) راجع فيما سبق ، ص ٥٥ ٠

(١٧٥) انظر : جامع التواريخ ، الترجمة العربية م ٢ جـ ٢ ص ٩٦ ، حيث يشير رشيد الدين مؤلف كتاب جامع التواريخ الى أن علاء الدين لم يذهب لبغداد وأرسل نوابه للتكفل بالأعمال والأشغال ٠

(١٧٦) انظر تاريخ الوصاف ، ص ١١٩ ، ونهاية الأرب للنويرى ، جـ ٢٥ ورقة ١٢٧ من نسخة دار الكتب المصرية ٠ رقم ٥٤٩ معارف عامة ٠

(١٧٧) انظر جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ص ٩٨ ٠

(١٧٨) يقول الحافظ الذهبى فى تاريخ الاسلام - نقلا عن ابن الفوطى - ان علاء الدين سقط عن فرسه فمات ، جـ٣٢ ورقة ٧ ، نسخة دار الكتب المصرية ، ٤٢ تاريخ٠ وما فى المتن رأى رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، الترجمة العربية ص ٩٩ ٠

(١٧٩) انظر تاريخ الوصاف ، طبع بمباى ، ص ١١٩ ، وتاريخ الاسلام للذهبى نقلا عن ابن الفوطى ، نفس النسخة والموضع وهناك اختلاف يسير ورد فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى ، جـ٢ ورقة ٣٧٧ من نسخة دار الكتب المصرية ، تاريخ ١١١٣٠ وتاريخ كزيده لحمد الله المستوفى القزوينى ، طبع ادوارد براون ، ص ٥٨٦ ٠

(١٨٠) راجع مقدمة جهانكشاى للقزوينى ، ص : نط ٠

نعشه الى تبريز ، ودفن بها ، وعند ئذ أرسل السلطان احمد رجلا اخر من الجوينيين هو السيد/ هارون بن شمس الدين محمد الجوينى ، اى ابن اخى علاء الدين ليتولى حكومة بغداد مكانه (١٨١) ٠

ولم تلبث أسرة الجوينى كلها أن نكبت بعد مقتل السلطان احمد فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٦٨٣ ، وتولى أرغون العرش مكانه (١٨٢) ، فقد قتل الوزير شمس الدين محمد فى ٤ شعبان من السنة نفسها ولم يلبث أن قتل أولاده بما فيهم هارون حاكم بغداد ، كما قتل منصور بن علاء الدين عطا ملك ، ولم تأت سنة ٦٩٢ حتى كان قد قضى على معظم افراد هذه الأسرة الكبيرة ، ودفن أكابرها فى نفس المقبرة التى دفن فيها علاء الدين بتبريز ، وهى تسمى مقبرة جرنداب ٠ وقد رثاهم احد شعراء عصرهم بقصيدة عربية مطلعها :

يا جرنداب من مقـــــابر تبريز

سقاك النحيا الملث الهامى (١٨٣)

---

(١٨١) انظر : ابا الفدا ، اسماعيل بن على عماد الدين : المختصر فى أخبار البشر ، طبع القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ ، حوادث سنة ٦٨٠ ، انظر ايضا الحوادث الجامعة ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ ٠

(١٨٢) انظر عباس اقبال ، تاريخ مغول ، ص ٢٢٩ وما بعدها ٠

(١٨٣) انظر : تاريخ الوصاف ، وقد أورد عددا من أبيـــــات هذه القصيدة ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، طبع بومباى ٠

خاتمـــة

بلغت الفترة التى قضاها علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكما لبغداد والعراق العربى أربعا وعشرين سنة ، بدأت فى سنة ٦٥٧ هـ ، بعد قضـاء المغول على الخلافة العباسية مباشرة ، وانتهت بوفاة علاء الدين سنة ٦٨١ هـ٠

ولولا مهارة علاء الدين وخبرته الادارية الطويلة ، ولولا المكانة التى احتلتها أسرته فى الدولة الايلخانية المغولية ، لما استطاع أن يبقى فى هذا المنصب الخطير كحاكم لبغداد طيلة هذه السنين كلها ، فى ظل دولة عرفت بالتقلب والتغير السريع ٠

ولقد أراد علاء الدين ـ منذ أن تم تنصيبه حاكما لبغداد ـ أن يبرهن على أنه رجل الساعة المطلوب لبغداد والعراق العربى جميعا ، فعمد الى النهوض بالبلاد ، وأعاد بناءها اقتصاديا وحضاريا ، فازدهرت بالعمران من جديد ، وعاد اليها من هجرها من أهلها ، واستردت قابليتها لاستيعاب المزيد من السكان والأهلين من كل البقاع ، وأضحت مثلما كانت أيام الخلافة مدنية وازدهارا واتساعا فى العمران والبنيان ٠

ولئن كانت الفترة الأولى من حكم علاء الدين لبغداد فترة قلقة لا تتسم بالكثير من الثبات ، فما لبثت الأمور بعد ذلك ـ ومنذ حوالى سنة ٦٧٢ هـ ـ تميل الى الاستقرار ، وتأكد للجميع أن العراق قد نهض من كبوته ، وأوشك على التخلص من الآثار المدمرة لفتح المغول لبغداد ٠ لكن هذه الشهرة التى تمتع بها العراق يومئذ جعلت أفواه المنافسين من أمراء المغول ، وغيرهم من الناقمين على الأسرة الجوينية ـ تتحلب طمعا فى حكم بغداد ، ورغبة فى الاطاحة بحاكمها علاء الدين عطا ملك الجوينى ٠

وكم عانى علاء الدين من هؤلاء المنافسين والناقمين ، وكم من مرة تعرض فيها للتنكيل والتعذيب ، وتعرضت أمواله للسلب والنهب ، لكنه صمد حتى النهاية واستطاع الاطاحة بكل منافسيه ٠

ولقد كان علاء الدين قانعا بوظيفته كحاكم لبغداد والعراق العـــربى، ولم يكن له من مطمع سياسى ـ حتى خلال فترات الضعف التى انتابت الدولة المغولية فى ايران ـ سوى أن يترك عن نفسه انطباعا طيبا لدى الســـلطان المغولى ، ولم ير علاء الدين أن ذلك يتعارض مع واجباته ومشاعره كمسلم غيور على دينه ، طالما هو يعمل ـ من خلال وظيفته ـ على تعمير الديار الاسلامية التى يتولى حكمها • ولذلك ، ومن خلال هذه النظرة ، لم تواته الجرأة لكى يفكر بأن يستقل بحكم العراق ، أو يطلب معونة المماليك ـ الأعداء اللدودين للايلخانيين المغول وعد نفسه ـ دائما ـ التابع المطيع للايلخانيين •

لكن علاء الدين استطاع ـ برغم ذلك ـ أن يسترد لبغداد شهرتها بين البلاد ، وأحبه أهل العراق ، وترفعوا عن مجاراة أعدائه والحاق الأذى به ، ودافعوا عنه ووقفوا الى جانبه فى المحن العديدة التى ابتلى بها ، فعد محبتهم له من نعم الله ـ عز وجل ـ عليه • وعبر عن مشاعره تلك وغيرها ، وتحدث عن الأحداث التى مرت به ومر بها من خلال سيرته الذاتية التى كتبها بنفسه عن الفترة الأخيرة من حياته كحاكم للعراق •

اسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم

١ ـ الكامل فى التاريخ ـ ١٣ جـزءا ، بيروت ١٣٦٨ هـ ٠

أحمد محمود الساداتى (دكتور)

٢ ـ تاريخ جهانكشاى ، مقال نشر بمجلة تراث الانسانية ٠ العدد الثانى، المجلد الرابع ، مصر ١٩٦٦ م ص ١١٨ ـ ١٣٢ ٠

الأحمد نكرى ، القــاضى

٣ ـ جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ، ٤ أجزاء ، بيروت ١٣٩٥ ٠

ابن تغرى بردى

٤ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بدار الكتب المصرية فى ثلاث مجلدات برقم ١١١٣ تاريخ ٠

جعفر حسين خصباك

٥ ـ أحوال العراق الاقتصــادية فى عهد الايلخانيين المغول (٦٥٦ ـ ٧٣٧) مقــال منشور بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد سنــة ١٩٦١ م ٠

الجوينى ، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد

٦ ـ تاريخ جهانكشاى (بالفارسية) ٣ أجزاء ، بتحقيق المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ليدن ١٩١٢ ـ ١٩٣٧ م ٠

٧ ـ تسلية الاخــوان ، نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم Suppl. Pers. 1556

٨ ـ صــلة تســلية الاخــوان ، نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس Suppl. Pers. 209

حمد الله المستوفى القزوينى

٩ ـ تاريخ كزيده (بالفارسية) جزءان ، طبع ادوارد براون ، ليــدن ١٩١٠ ـ ١٩١٣ م

الخطيب البغدادى
١٠ - تاريخ بغداد - طبع المطبعة السلفية بالمدينة المنورة .

ابن خلدون
١١ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ طبع بيروت .

الخوارزمى
١٢ - مفاتيح العلوم - طبع مصر ١٩٧٨ م .

خوندامير ، غياث الدين بن همام
١٣ - حبيب السير ، (بالفارسية) ، نشر محمد حسين كاشانى ، بمباى ١٢٧٣ .

الذهبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد
١٤ - تاريخ الاسلام ، النسخة الخطية المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٢ تاريخ .

رشيد الدين فضل الله الهمدانى
١٥ - جامع التواريخ (بالفارسية) نسخة المكتبة الأهلية بباريس ، رقم Suppl. Pers. 209 ، نقلا عن محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى مقدمة تاريخ جهانكشاى ، الجزء الأول .

١٦ - جامع التواريخ (الترجمة العربية) للاساتذة الدكتور يحيى الخشاب، والدكتور فؤاد الصياد ، وصادق نشأت ، م ٢ - ج ٢ ، طبع مصر ١٩٦٦ م .

ابن شاكر الكتبى ، محمد بن شاكر بن أحمد
١٧ - فوات الوفيات . تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٤ م .

ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا العلوى
١٨ - الفخرى فى الآداب السلطانية ، مصر ١٩٢٧ م .

عباس اقبـــال
١٩ ـ تاريخ مغول (بالفارسية) ، طهـــران ١٣٤٧ هـ ٠ ش

عبد المجيد أبو الفتوح بدوى (دكتور)
٢٠ ـ المذهب السنى فى المشرق الاسلامى من القرن الخامس الى سـقوط بغداد ، رسالة دكتوراه محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ١٩٧٨ م ٠

ابن العبرى ، أبو الفرج غرغوريوس اهرون
٢١ ـ مختصر الدول ـ طبع بيروت ١٨٩٠ م ٠

ابن عنبة ، جمال الدين أحمد بن على الحسنى العلوى
٢٢ ـ عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ـ بمباى ١٣١٨ ٠

أبو الفدا ، اسماعيل بن على
٢٣ ـ المختصر فى أخبار البشر ، طبع القسطنطينية ١٢٨٦ ٠

فؤاد عبد المعطى الصياد ، (دكتور)
٢٤ ـ المغول فى التاريخ ـ بيروت ١٩٧٠

ابن الفوطى ، كمال الدين عبد الرازق بن الفوطى البغدادى
٢٥ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، بغـــداد ١٩٣٢ م ٠

القلقشندى ، أبو العباس احمد
٢٦ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، مصر ١٩٢٠ م ٠

محمد السعيد جمال الدين (دكتور)
٢٧ ـ دولة الاسماعيلية فى ايران ، مصر ١٩٧٥ م ٠

محمد ضياء الدين الريس (دكتور)
٢٨ ـ الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ، مصر ١٩٧٧ م ٠

محمــــد عــوفى
٢٩ ـ لباب الألباب (بالفارسية) ، تحقيق ادوارد براون ، ليدن ١٩٠٣

نصير الدين الطوسى ،
٣٠ ـ كيفية واقعة بغداد (بالفارسية) ٠ نشر في ذيل الجزء الثالث من تاريخ

جهانكشاى بتحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ليدن ١٩٣٧ م ٠
٣١ ـ رسالة الى أهل الشام ، نشرها الدكتور عبد الأمير الأعسم فى كتاب « الفيلسوف نصير الدين الطوسى » ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ م ٠

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
٣٢ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ٠

-- Boyle, J.A., Ibn al-Tiqtaqa and the Tarikh-i-Jahan Gushay of Juvaini, B.S.O.A.S. Vol. XIV, Part I.

فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

فهرست